أوراق 13
فلسطينيّة

أصوات مكتومة وفضاءات معسكرة:
الأطباء الفلسطينيون في المستشفيات الإسرائيليّة بعد السابع من أكتوبر

غادة مجادلة

شباط 2025

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

أوراق فلسطينيّة 13
شباط 2025

أصوات مكتومة وفضاءات معسكرة: الأطباء الفلسطينيون في المستشفيات الإسرائيليّة بعد السابع من أكتوبر

غادة مجادلة
باحثة في مجال التقاطع بين الصحّة والسياسة، ومحلِّلة سياسة في شبكة السياسات الفلسطينيّة، وحاصلة على درجة الماجستير في حقوق الإنسان والعدالة الانتقاليّة

العنوان: همغينيم 90 حيفا
البريد الإلكتروني: mada@mada-research.org
رقم الهاتف: 04-8552035

خلاصة

تكثّفت على نحوٍ بالغٍ، منذ السابع من أكتوبر 2023، عمليّاتُ ترهيبٍ ومراقَبةٍ[1] الفلسطينيّين العاملين في المجال الطبّيّ، والذين يشكّلون 21% من القوى العاملة في مجال الرعاية الصحّيّة في إسرائيل.[2] فقد جرى تجريم أطبّاء فلسطينيّين، وغيرهم من مقدّمي الرعاية الصحّيّة العاملين في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، لمجرّد تعبيرهم عن تعاطفهم مع الضحايا المدنيّين في غزّة بسبب انتقادهم ممارسات إسرائيل وانتهاكاتها لحقوق الإنسان في القِطاع. وقد أعيدت صياغة مثل هذه التعبيرات عن التعاطف والمعارَضة باعتبارها أعمالًا تستوجب المعاقَبة، وذلك كجزء من جهد أوسع لقمع أصوات هؤلاء والحدّ من قدرتهم على التعبير السياسيّ. تتناول هذه الورقة تجارب أطبّاء وطبيبات فلسطينيّين وفلسطينيّات يعملون في النظام الصحّيّ الإسرائيليّ في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر، وتركّز على كيفيّة تعاملهم مع تصاعد أجواء العسكرة. ومن خلال تأطير تجاربهم في السياق الأوسع لدمجهم في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، تسلّط الورقة الضوء على الطرق التي بها فَرَض هذا النظام عليهم الصمت والقمع، فضلًا عن ردّة فعله إزاء العنف المتصاعد منذ السابع من أكتوبر.

تقديم

كُتبت هذه الورقة البحثيّة في ضوء حوادث ملاحَقة الأطبّاء الفلسطينيّين وغيرهم من مقدّمي الرعاية الصحّيّة أثناء الحرب على غزّة، وهي حوادث تكشف عن زيادة مقلقة في قمع وإسكات الأصوات الفلسطينيّة داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ. وقد تواترت تقارير عديدة عن طرد فلسطينيّين من أماكن عملهم في إسرائيل بسبب التعبير عن تضامنهم مع ضحايا غزّة، وذلك من خلال اعتباره "دعمًا للإرهاب"، وهو ما يمكّن من استخدامه ذريعة للفصل عن العمل. وتشتمل الحالات الموثّقة على حالات من الطرد، والإجراءات التأديبيّة، بل كذلك استجواب الشرطة لمتخصّصين فلسطينيّين في مجال الرعاية الصحّيّة متّهَمين بتأييد الإرهاب والتحريض على العنف.[3]

ونظرًا للحاجة الملحّة إلى رصدِ هذا الوضع غير المسبوق ودراستِه ومَفْهَمَتِهِ، تفحص الورقة ديناميكيّات السيطرة والملاحَقة المتزايدة، وتقدّم تبصُّرات نقديّة في ما يخصّ إسقاطاتها الأكثر اتّساعًا.

وتشكّل قضيّة الدكتور عبد سمارة،[4] رئيس وحدة العناية المركّزة للقلب في مستشفى هشارون في پيتَح تِكْفا، مثالًا على ذلك. فقد أُوقِفَ سمارة عن عمله بعد أيّام قليلة من السابع من أكتوبر، دون إجراء أيّ تحقيق بشأن الادّعاءات التي اتّهمته بنشر محتوى على موقع فيسبوك يعبّر فيه عن دعمه للإرهاب. وبالإضافة إلى إيقافه عن العمل، قدّمت إدارة المستشفى شكوى ضدّه لدى الشرطة. وبعد شهر ونصف الشهر، تَبَيَّنَ عدم صحّة الاتّهامات؛ ولكن على الرغم من تبرئته، قرّر الدكتور سمارة ترك وظيفته في المستشفى الذي عمل فيه مدّة خمسة عشر عامًا. وقد نُشِرت تقارير أخرى عن عدّة حالات مماثلة في مختلف أنحاء البلاد، تضمّنت تعليقَ عمل مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين، أو فصْلَهم من العمل بذريعة "التعبير عن آراء تدعم الإرهاب" -وكانت هذه في معظمها مجرّد تعبير عن التعاطف مع المدنيّين الأبرياء في غزّة.

* أتقدم بالشكر لكل من الدكتور غاي شاليف والدكتور أسامة طنوس على ملاحظاتهما القيمة.

1. أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل. (2023، 17 تشرين الأوّل). الآن تحديدًا– شراكة حقيقيّة في نظام الرعاية الصحّيّة. أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل. [بالعبريّة]

2. وزارة الصحّة. (2022). القوى العاملة في المهن الصحّيّة 2022. وزارة الصحّة. [بالعبريّة]

3. زعبي، بكر. (2023، 20 تشرين الثاني). منذ الحرب: اضطهاد غير مسبوق للعرب العاملين في الطبّ. ميكوميت. [بالعبريّة]

4. Efrati, Ido. (2023, December 20). Arab-Israeli doctor leaves job after being wrongly accused of supporting terrorism. Haaretz.

تتناول هذه الورقة تجارب تسعة من الأطبّاء الفلسطينيّين والطبيبات والفلسطينيّات، يعملون في المستشفيات وصناديق التأمين الصحّيّ الإسرائيليّة (كوبات حوليم) في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر وحرب الإبادة الجماعيّة التي تلتها على غزّة. وفي هذا السياق، تتناول الورقة ثلاث موضوعات رئيسيّة. أوّلًا، تؤطّر الورقة سياق اندماجهم في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ على مدى العَقْدَيْن الماضيَيْن من خلال سياسات الإدماج والاحتواء التي نزعت الطابع السياسيّ عن أدوارهم المهنيّة وعن هُويّتهم. ثانيًا، تستكشف هذه الورقة الموجة الأخيرة من الترهيب والاضطهاد اللذَيْن يتعرّض لهما مقدّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون، وذلك استنادًا إلى تسع مقابَلات معمَّقة أَجْرَتْها كاتبة هذه السطور مع أطبّاء فلسطينيّين يعملون في مختلف المستشفيات وصناديق التأمين الصحّيّ الإسرائيليّة. تمنحنا المقابَلات تبصُّرات حول كيفيّة تعامُل الأطبّاء الفلسطينيّين مع الترهيب والاضطهاد وتصاعُد أجواء العسكرة التي تسيطر في أروقة مَرافق الرعاية الصحّيّة في إسرائيل، واستجابتهم إزاءها. وبالإضافة إلى المقابَلات، تستند الدراسة إلى تحليل للنصوص ذات الصلة والتقارير الإخباريّة وحالات الملاحَقة الموثَّقة التي ورد ذكرها في وسائل الإعلام. ثالثًا، تبحث الدراسة في كيفيّة تأثير بيئة العسكرة المتزايدة على تشكيل تجاربهم اليوميّة، وذلك من خلال تحليل للكلفة الشخصيّة والمهنيّة التي جباها منهم هذا المُناخ العدائيّ. كذلك تسلّط الورقة الضوء على كيفيّة تعزيز هذه التطوُّرات لآليّات السيطرة والمراقَبة القائمة من قَبْل على الفلسطينيّين داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، مع تسليط الضوء على القضيّة الأوسع والمتمثّلة في اختراق السياسة الحكوميّة للمجال الطبّيّ، وخاصّة في السياقات التي تعمل فيها منظومة الرعاية الصحّيّة كموقع للسلطة السياسيّة. فضلًا عن هذا، تصفُ الورقة ديناميكيّات الذاتيّة والفاعليّة الفلسطينيّتين وأنماط الامتثال أو الخضوع، وتُحلّلُها.

في مستهَلّ هذه الورقة يُعْرَض إطار مفاهيميّ يؤطّر سياق واقع مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين العاملين في المستشفيات الإسرائيليّة وغيرها من مَرافق الرعاية الصحّيّة بعد السابع من أكتوبر. يتبع هذا الاستهلالَ قسمٌ يقدّم ويناقش ويلخّص النتائج الرئيسيّة التي تمخَّضَ عنها تحليل المقابَلات، ويمنحنا تبصُّرات تخصّ الإسقاطات الأوسع على مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين العاملين في القِطاع الصحّيّ في ظلّ ظروف القمع السياسيّ والعسكرة. ومن ثَمّ، تُختتَم هذه الورقة بقسم نخصّصه للاستنتاجات.

كُتِبت هذه الدراسة في وقت كان الجيش الإسرائيليّ يقوم خلاله باستهداف النظام الصحّيّ في غزّة على نحوٍ منهجيّ، وذلك من خلال الهجمات العسكريّة على المَرافق الصحّيّة والطواقم الطبّيّة والنازحين الذين يبحثون عن مأوى داخل مستشفيات قِطاع غزّة. فمنذ بداية الحرب، قامت القوّات الإسرائيليّة على نحوٍ ممنهَج ومتعمّد بتفكيك البنْية التحتيّة للرعاية الصحّيّة في غزّة، وذلك من خلال قصف المستشفيات ومراكز الرعاية الصحّيّة، وقطع الكهرباء والإمدادات الطبّيّة، وإجبار المرضى والطواقم الصحّيّة على إخلائها تحت تهديد السلاح، وإطلاق النار على مقدّمي الرعاية الصحّيّة في المستشفيات والمحتَمين بها أو متلقّي الرعاية فيها.[5]

5. لمزيد من المعلومات عن هجمات إسرائيل على نظام الرعاية الصحّيّة في غزّة، يرجى الاطّلاع على الملحَق: "أطبّاء ومستشفيات تحت القصف: الإبادة الممنهَجة لجهاز الصحّة العامّة في غزّة خلال الحرب (2023-2024)"، ص (21).

الإطار المفاهيميّ

في المعتاد، تشكّل القوى السياسيّة الراسخة البنى التحتيّة للرعاية الصحّيّة، وبخاصّة في السياقات الاستعماريّة، وهو المجال الذي استفاض الباحثون في استكشافه على مدى عديد العقود الماضية.[6] ولا يشكّل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ استثناءً في هذا الصدد، ويمكن فهم ديناميكيّاته الداخليّة بالنظر إلى السياسات الأوسع التي تنتهجها إسرائيل تجاه السكّان غير اليهود داخل الدولة.[7] ومن بين هؤلاء هنالك الفلسطينيّون، الذين في المعتاد تُعتبَر فاعليّتهم السياسيّة تهديدًا للأغلبيّة اليهوديّة. ففي السياق الفلسطينيّ، تعكس البنى التحتيّة المدنيّة، مثل نظام الرعاية الصحّيّة، سياسات دولة إسرائيل الأوسع تجاه الفلسطينيّين. وكما يؤكّد أسامة طنّوس وآخرون، يسهم كلّ من العنصريّة البنيويّة والاستعمار الاستيطانيّ في خلق التفاوتات الصحّيّة الممنهَجة تجاه المواطنين الفلسطينيّين في إسرائيل، وبخاصّة في ما يتعلّق بمنالية الرعاية الصحّيّة.[8] وفي العقود الأخيرة، قام العديد من الباحثين (ومن بينهم نادرة شلهوب-كيڤوركيان) بدراسة التقاطع بين الاستعمار الاستيطانيّ والرعاية الصحّيّة في السياق الفلسطينيّ، مركّزين تركيزًا خاصًّا على كيفيّة قيام إسرائيل باستخدام منالية الفلسطينيّين للرعاية الصحّيّة في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة سلاحًا،[9] وتكشف العديد من الحالات الموثّقة عن تواطؤ نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ مع فرض هذه السياسات.[10] وفي الحين الذي تطرّق فيه طنّوس بإيجاز إلى نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ باعتباره جزءًا من بنْية الاستعمار الاستيطانيّ الأساسيّة،[11] يمنحنا هذا الإطار تبصُّرات أساسيّة أخرى في ما يخصّ التجارب التي يعايشها مقدّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون في أعقاب السابع من أكتوبر وردود فعل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ على تصريحاتهم بشأنِ ما لحقه من حرب في غزّة. وكذلك يلقي الضوء على التحدّياتِ التي يواجهها هؤلاء الأطبّاء، والعسكرةِ المتزايدة للرعاية الصحّيّة في إسرائيل، وتأثيرِ ذلك على أدوارهم المهنيّة وهُويّاتهم السياسيّة. وبالإضافة إلى ذلك، يمكن لهذه الدراسة تقديم تفسيرات تخصّ كيفيّة اندماج نظام الرعاية الصحّيّة في قلب بنى السلطة الأوسع، وكيفيّة تَماشيه مع السياسات العامّة للدولة تجاه مواطنيها الفلسطينيّين، وعلى وجه الخصوص عندما لا تتوافق هُويّاتهم السياسيّة "غير المنضبطة" مع توقُّعات الدولة من سلوكهم. سنقوم باستكشاف هذه الديناميكيّات بمزيد من التفصيل في الأقسام التالية.

قام العديد من الباحثين الفلسطينيّين بدراسة تطوُّرات السياسات الإسرائيليّة تجاه مواطني إسرائيل الفلسطينيّين على مدى العَقدَيْن الماضيَيْن، مسلّطين الضوء على كيفيّة ارتباط هذه السياسات ارتباطًا وثيقًا بالتحوُّلات السياسيّة الأوسع. فقد تكثّفت سياسات الاحتواء والاستيعاب في التسعينيّات، وتطوّرت على نحوٍ أكبر بعد انتفاضة تشرين الأوّل عام 2000 التي أحدثت تحوُّلًا محوريًّا في كيفيّة انخراط الفلسطينيّين في إسرائيل مع القضيّة الفلسطينيّة الأوسع. وردًّا على ذلك، سعت الدولة الإسرائيليّة إلى تقويض انخراطهم المتزايد من خلال اتّباع إستراتيجيّتَيْن متوازيتَيْن: الترهيب السياسيّ والاحتواء.[12]

6. Comaroff, Jean. (1993). "The diseased heart of Africa: Medicine, colonialism, and the black body". In Lindenbaum, Shirley. & Lock, Margaret M (Eds.), **Knowledge, power, and practice: The anthropology of medicine and everyday life**. University of California Press. Pp. 305- 329; Anderson, Warwick. (2007). **Colonial pathologies: American tropical medicine, race, and hygiene in the Philippines**. Duke University Press.

7. انظروا -على سبيل المثال- قضيّة حُقَن منع الحَمْل ديپو پروڤيرا التي حُقِنت بها النساء الإثيوبيّات في إسرائيل دون علمهنّ أو موافقتهنّ، في:
The Guardian. (n. d). Ethiopian women in Israel 'given contraceptive without consent'. The Guardian.

8. Tanous, Osama, et al. (2023). Structural racism and the health of Palestinian citizens of Israel. **Global Public Health**, 18 (1).

9. Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2015). The politics of birth and the intimacies of violence against Palestinian women in occupied East Jerusalem. **The British Journal of Criminology**, 55 (6). Pp. 1187– 1206; Majadle, Ghada, & Ziv, Hadas. (2022). Amputating the body, fragmenting the nation: Palestinian amputees in Gaza. **Health and Human Rights**, 24 (2). P. 281; Asi, Yara M. (2022). Palestinian dependence on external health services: De-development as a tool of dispossession. **Middle East Law and Governance**, 14 (3). Pp. 366- 387.

10. Tanous, Osama, & Majadli, Ghada. (2022, March 3). A medical school in the service of colonialism. +972 Magazine; Tanous, Osama, & Majadli, Ghada. (2022, June 7). When hospitals become battlefields. +972 Magazine.

11. Tanous, Osama. (2020). Covid-19 fault lines: Palestinian physicians in Israel. **Journal of Palestine Studies**, 49 (4). Pp. 36- 46.

12. عنبتاوي، خالد. (2024). هبّة في حالة عتبة، هبّة الكرامة (أيار 2021) والفعل الانتفاضي- الشعبي لدى فلسطينيّي 1948 - مقاربة سوسيولوجية. حيفا: مدى الكرمل.

لقد خلقت هذه السياسات، التي رُوِّج لها على أنّها اندماج اقتصاديّ، بنْيةً من التبعيّة الاقتصاديّة للفلسطينيّين في إسرائيل ولكن دون منحهم اندماجًا سياسيًّا كاملًا.[13] ويؤكّد الباحثون في هذا الشأن على الدَّوْر الذي قامت به السياسات النيوليبراليّة منذ ثمانينيّات القرن العشرين في تحويل اقتصاد إسرائيل مستخدِمةً ذريعة التحديث.[14] يضمن الجمع بين الدمج الاقتصاديّ والسيطرة السياسيّة القدرةَ على السيطرة والضبط المدروس لأيّ تقدُّم قد يحرزه المواطنون الفلسطينيّون بما يتماشى مع مَصالح الدولة. تُبرز هذه الإستراتيجيّة المزدوجة الهدف المزدوج القائم من وراء هذه السياسات: تعزيز الأهداف الاقتصاديّة القوميّة والاستجابة إلى طلب السوق على القوّة العاملة، مع ضمان الولاء السياسيّ وقمع المقاوَمة لدى العرب الفلسطينيّين في إسرائيل. ومن هنا، يتحقّق الدمج الاقتصاديّ على حساب القمع السياسيّ.[15]

لقد جرى تَبَنّي هذا النهج في خطّة خمسيّة (القرار الحكوميّ رقم 922 (2015-2020)[16])، وهي الخطّة التي سُوِّقت باعتبارها مبادرة من أجل "التنمية الاقتصاديّة للمجتمع العربيّ" في إسرائيل. وقد تبعت هذه خطّةٌ خمسيّة أخرى (القرار الحكوميّ رقم 550 (2021-2026)[17]) حملت الاسم ذاته. صُمِّمت المبادَرتان ابتغاء عَصْرَنة الاقتصاد الإسرائيليّ، وذلك من خلال معالجة نقص القوّة العاملة وتحفيز النموّ الاقتصاديّ، بالإضافة إلى التحكُّم بإدارة السكّان الفلسطينيّين في الوقت نفسه، وعلى هذا الأساس كان لهما بُعْد سياسيّ واضح؛ فقد كان الهدف من المبادرتين تثبيت السيطرة على السكّان الفلسطينيّين من خلال تقييد قدرتهم السياسيّة، وضمان امتثالهم السياسيّ والحدّ من المقاومة.

وكما تؤكّد مجموعة من المؤسَّسات البحثيّة، يسلّط تنفيذ الخطّة الأخيرة، أو القرار 550 -وخاصّة بعد "هبّة الكرامة" في أيّار 2021 - الضوءَ على التشابك الحاصل بين المبادَرات الاقتصاديّة والأهداف السياسيّة. فبحسب هذه المؤسَّسات، تبّنت دولة إسرائيل، من خلال تنفيذها للقرار 550، مصلحتها القوميّة في تعزيز اندماج الشباب العربيّ في الاقتصاد الإسرائيليّ والقوى العاملة عامّة، ومن بين ذلك الوسط الأكاديميّ.[18] وشدّدت مؤسَّسات أخرى على وجوب اشتمال استجابة الدولة لأحداث أيّار 2021 على خطّة حكوميّة ترمي إلى مكافَحة العنف والجريمة لدى السكّان العرب في إسرائيل، وأن تتضمّن كذلك برامجَ اقتصاديّةً واجتماعيّة متعدّدة السنوات في مجالات كمجالات التعليم والتوظيف. ووَفقًا لهذه المؤسَّسات، ستعمل مثل هذه السياسات على زيادة اندماج المواطنين العرب في المجتمع والسياسة الإسرائيليَّيْن وعلى تعزيز "أَسْرَلَتهم،" وذلك مع السماح لهم بالاحتفاظ بهُويّتهم بوصفهم عربًا.[19]

يجسّد الحضور المتزايد للعمّال العرب في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ هذه السياسات. فقد كانت سياسات الدولة الرامية إلى دمج السكّان المهمَّشين في هذا النظام مدفوعة بدوافع اقتصاديّة وسياسيّة. ويعكس العدد المتزايد من الأطبّاء والطبيبات والممرّضات والممرّضين الفلسطينيّين –الذي ارتفع من 9% في العام 2010 إلى 25% في العام 2022، وَفقًا لوزارة الصحّة الإسرائيليّة-[20] إلى نجاح هذا النهج المزدوج. على الرغم من دمج مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين في النظام الصحّيّ والاعتراف بإسهاماتهم، يظلّ إدراجهم هذا مشروطًا باحتوائهم سياسيًّا، وهو ما يتّضح

13. المرجع السابق.

14. انظروا:

Maron, Asa, & Shalev, Michael (Eds.). (2017). **Neoliberalism as a state project: Changing the political economy of Israel**. Oxford University Press.

15. Bloch, Ofra. (2021). Hierarchical inclusion: The untold history of Israel's affirmative action for Arab citizens (1948– 68). **Law and History Review**, 39 (1). Pp. 29- 67.

16. مكتب رئيس الوزراء. (31 كانون الأوّل، 2015). النشاط الحكوميّ للتنمية الاقتصاديّة بين السكّان الأقلّيّة في الأعوام 2016-2020، قرار حكوميّ رقْم 922 لسنة 2015/12/30 ليوم مكتب رئيس الوزراء. [بالعبريّة]

17. مكتب رئيس الوزراء. (24 تشرين الأوّل، 2021) الخطّة الاقتصاديّة لتقليص الفجوات في المجتمع العربيّ بحلول عام 2026، قرار حكوميّ رقْم 550 بتاريخ 2021/10/24. مكتب رئيس الوزراء. [بالعبريّة]

18. The Myers-JDC-Brookdale Institute. (2017). Arab youth in Israel: A comprehensive statistical review. The Myers-JDC-Brookdale Institute.

19. Institute for National Security Studies. (2021, May 31). Jewish-Arab relations in Israel, April- May 2021. Institute for National Security Studies.

20. وزارة الصحّة. مرجع رقم 2.

على نحوٍ خاصّ من ملاحَقتهم وإسكاتهم بعد السابع من أكتوبر. ومن هنا يتّضح لنا أنّ هذا النظام يعمل كآليّة للسيطرة على القوى العاملة الفلسطينيّة؛ إذ هو يوفّر فرصًا اقتصاديّة في وقت يحدّ فيه من التعبير السياسيّ، وذلك كجزء من إستراتيجيّة الاحتواء التي تنتهجها الدولة على نطاق أوسع.

تقدّم لنا أحداث أيّار 2021 وأحداث تشرين الأوّل 2023 وتداعياتها أمثلةً واضحةً على كيفيّة تكشُّف هذه الديناميكيّات من خلال الممارَسة العمليّة. فخلال "هبّة الكرامة" في أيّار 2021، على سبيل المثال، أفاد مقدّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون بتعرُّضهم للمضايقات وللمراقَبة المؤسَّساتيّة بسبب تعبيرهم عن تضامنهم مع زملائهم الفلسطينيّين في غزّة والقدس الشرقيّة.[21] وفي ذات الوقت، قامت الأنظمة المدنيّة الحكوميّة باستخدام دمجهم في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ كأداة لقمع التوتُّرات ولقمع المعارضة.[22] وكما يشير چاي شاليف (2018)، جرى تقديم ممارسات إسكات الأصوات هذه بوصفها جهودًا للحفاظ على الحياد الطبّيّ، مضيفًا أنّها تشير إلى آليّة أوسع يسيَّس من خلالها الحياد من أجل الضغط على مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين ابتغاءَ قمع هُويّاتهم السياسيّة.[23] ويقوم هذا التلاعب بمفهوم الحياد بدَوْره في إسكات التعبير عن التضامن والمعارَضة، ليرسّخ بالتالي سيطرة الدولة على الفلسطينيّين مقدّمي الرعاية الصحّيّة.

كان المؤشّر الأوضح على فاعليّة هذه الممارَسات شُحّ مشارَكة الأطبّاء الفلسطينيّين في الإضراب العامّ الذي أُعلِن عنه في أيّار 2021 في جميع أنحاء فلسطين التاريخيّة؛ إذ تشير التقديرات إلى امتناع نحو 90% من مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين عن المشارَكة في الإضراب، وهو ما يسلّط الضوء على تأثير التدابير المذكورة أعلاه على الحدّ من المشارَكة السياسيّة.[24] وقد تفاقَمَ هذا القمع، ورافقه بعض المقاوَمة المحدودة له، في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر.

منهج البحث

تستخدم هذه الدراسة مناهج بحث نوعيّة، من بينها المقابَلات المعمَّقة وتحليل الوثائق، وذلك بغية الاستئثار بالتجارب التي عايشها الأطبّاء الفلسطينيّون العاملون في المَرافق الصحّيّة الإسرائيليّة. علاوة على هذا، هي تؤطّر التحدّيات الشخصيّة والمهنيّة التي يواجهها هؤلاء في السياق الأوسع للاحتواء السياسيّ والمحو، وخاصّة خلال الأحداث السياسيّة الكبرى مثل الحرب التي بدأت في السابع من تشرين الأول 2023 وهبّة أيّار 2021. تسعى الدراسة إلى تسليط الضوء على آليّات القمع وعلى التجارب التي عايشها الفلسطينيّون مقدّمو الرعاية الصحّيّة الذين وقَعوا تحت تأثير هذه الآليّات. فضلًا عن ذلك، تحليل كلّ من الوثائق والموضوعات الواردة في المقابَلات شبه المنظَّمة يسهم في تأطير تجاربهم في سياق هذه الديناميكيّات. بالإضافة إلى هذا، تُعاين الدراسة المراسَلات التي وجّهها رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة إلى أعضائها وإلى الجمعيّات الصحّيّة والأكاديميّة الدوليّة، وتدمجها في القسم الذي يُعْنى بموضوعة عَسْكَرة نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ.

تجدر الإشارة إلى أنّ البحث قد أُجرِيَ أثناء الحرب، وذلك في جوّ من الترهيب والرقابة الذاتيّة، وهو ما جعل الأطبّاء الفلسطينيّين عرضة لمخاطر كبيرة نابعة من المراقَبة والإسكات. ولهذا السبب، كان من الصعب تجنيد مشاركين في الدراسة. جرى اختيار المشاركين التسعة على نحوٍ عشوائيّ. وقد منحني المشاركون موافَقتهم الطوعيّة بعد تلقّيهم

21. أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل. مرجع رقم 1.

22. Shalev, Guy, & Tanous, Osama. (2021, May 20). To achieve 'coexistence,' Palestinian healthcare workers in Israel cannot show up as their full selves. Forward.

23. Shalev, Guy. (May 2018). **Medicine and the politics of neutrality: The professional and political lives of Palestinian physicians in Israel**. [Doctoral dissertation, University of North Carolina].

24. Orr, Zvika, & Fleming, Mark D. (2023). Medical neutrality and structural competency in conflict zones: Israeli healthcare professionals' reaction to political violence. **Global Public Health**, 18 (1).

شرحًا واضحًا لأهداف البحث وضمانًا بعدم الكشف عن هُويّاتهم. كذلك بذلتُ جهودًا لضمان التنوُّع بين المشاركين، بما يشمل الموقع الجغرافيّ والتراتُب الوظيفيّ، وهذا مكّنني من توفير تمثيل لتسعة مستشفيات وعيادات طبّيّة مختلفة.

ترمي نتائج البحث إلى تسليط الضوء على التجارب الفرديّة، وتوفير تبصُّرات، وتوليد مشاهَدات تمنحنا فهمًا أعمق للديناميكيّات القائمة داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ بعد السابع من أكتوبر، ولكيفيّة تعايش هؤلاء الأطبّاء الفلسطينيّين مع هذه الديناميكيّات وطُرُق تعامُلهم معها. إجراء بحث أكثر شمولًا حول دَوْر نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ في السيطرة على مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين، من خلال فرض سياسات الدولة، من شأنه أن يمنحنا فَهْمًا أكثر اكتمالًا لهذه الديناميكيّات والآليّات، فضلًا عن تجارب وردود فعل مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين. في جميع الأحوال، قام المشاركون في هذه الدراسة، على الرغم من عددهم المحدود، بمشاركة تجارب شخصيّة كاشفة، وقدّموا تأمُّلاتهم التي تخصّ الجوّ العامّ السائد في أماكن عملهم، من خلال مشاركَتهم تبصُّرات قيّمة بشأن التحدّيات التي يواجهها مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون، وبشأن الطرق التي يسلكونها للتعامل مع هذه التحدّيات.

تستكشف الدراسة الأصوات والتصوُّرات والتجارب الشخصيّة والمهنيّة والتحدّيات التي يواجهها تسعة أطبّاء فلسطينيّين يعملون في نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، وخاصّة في أعقاب التوتُّرات المتزايدة والملاحقة الموثَّقة التي سادت بعد السابع من أكتوبر. أضف إلى هذا أنّ الدراسة تقيّم الإجراءات التي اتّخذها نظام الرعاية الصحّيّة، من خلال وضعها في إطار مفاهيميّ أوسع. ومن خلال المقابلات وتحليل الموضوعات، ترمي الدراسة إلى كسب فَهْم بشأن ردّ فعل نظام الرعاية الصحّيّة في أعقاب أحداث السابع من أكتوبر على وجه الخصوص، إضافة إلى أنّها تستكشف إسقاطات ذلك على أدوار ومناصب الأطبّاء الفلسطينيّين داخل هذا النظام.

أجريتُ مقابلات شبه منظَّمة مع تسعة من الأطبّاء الفلسطينيّين والطبيبات الفلسطينيّات، يعملون في مناطق جغرافيّة مختلفة، وعلى مستويات مختلفة من الأقدميّة المهنيّة. وقد جرى استخدام تحليل الموضوعات لتحديد الثيمات والقضايا الرئيسيّة التي أثيرت أثناء المقابَلات، وذلك من أجل الحصول على تبصُّرات تخصّ الإسقاطات الأوسع لِما عايشوه من تجارب.

ونظرًا لحسّاسيّة هذه الدراسة، كان ضمان عدم الكشف عن هُويّة المشارِكين أمرًا بالغ الأهمّيّة. لقد جرى التأكيد لجميع المشاركين أنّ هُويّتهم الحقيقيّة محميّة، وذلك من خلال استبدال أسمائهم الحقيقيّة بأسماء مستعارة وشطب أيّ معلومة قد تكشف عن هُويّتهم الحقيقيّة أثناء النسخ والتحليل. لكن على الرغم من ذلك، فرض هذا الالتزام بعدم الكشف عن هُويّة المشاركين تقييدًا أثّر على الدراسة؛ إذ كان من الضروريّ التخلّي عن جوانب معيَّنة من تجارب المشارِكين وأمثلة محدَّدة، وهو أمر من شأنه التقليل من عمق النتائج وانعكاساتها.

النتائج والمناقَشة

كشف تحليل المقابَلات التسع المعمَّقة عن أربعة أنواع مختلفة، لكن مترابطة، من التجارب التي سردها المشاركون، إذ ذكر كلّ منهم بعضًا منها أو جميعها، وهي: نزع الصفة الإنسانيّة، التي تتميّز بإنكار إنسانيّة الفلسطينيّين؛ العنصريّة والتمييز العنصريّ، المتجذّران داخل نظام الرعاية الصحّيّة؛ الترهيب والإسكات، المصمَّمان لقمع المعارضة؛ العسكرة، التي تعكس اصطفاف النظام الصحّيّ مع عنف الدولة والأيديولوجيّات العسكريّة.[25]

25. أُجرِيَت المقابلات في الفترة الواقعة بين آب 2024 وتشرين الأوّل من العام نفسه.

نزع الصفة الإنسانيّة

أشار المشاركون خلال المقابَلات على نحوٍ متكرّر إلى ما واجهوه من مواقف "نزع الإنسانيّة" والعنصريّة، ودمجوا هذه المفاهيم على نحوٍ صريح في سردهم. وكان استخدامهم لمفهوم "نزع الإنسانيّة" مرتبطًا بالآراء التي عبّر عنها زملاؤهم الإسرائيليّون حول سكّان غزّة، في حين قاموا باستخدام الكلمة "عنصريّة" بصورة أساسيّة لدى وصفهم للقاءاتهم الشخصيّة. وأفاد المشارِكون بأنّ نظراءهم الإسرائيليّين اليهود اعتبروا الناس في غزّة -بصرف النظر عمّا إذا كانوا مدنيّين أَمْ بالغين أَمْ أطفالًا- دون البشر ولا يستحقّون التعاطف أو الاعتبارات الأخلاقيّة.[26] ومن الجدير بالذكر أنّ العديد من المشارِكين عَمَدوا كذلك إلى استخدام مصطلح "نزع الإنسانيّة" للتعبير عن شعورهم بكونهم هم أنفسهم مقيّدين من جهة قدرتهم على التعبير عن تضامنهم وتعاطفهم مع الضحايا في غزّة، وعن محدوديّة قدرتهم على التعبير عن الإنسانيّة والتضامن. وبدا جليًّا خلال المقابلات أنّ المشارِكين عايشوا التصريحات التعميميّة واللاـإنسانيّة التي جرى التفوُّه بها عن الفلسطينيّين في غزّة أمامهم كتصريحات مباشرة وشخصيّة، أي كما لو كانت هذه موجَّهةً إلى هؤلاء الأطبّاء أنفسهم.

تطرَّقَ العديد من الباحثين، ومن بينهم فرانز فانون (1952) وأشيل مبيمبي (2020) في نظريّته عن سياسة الإماتة، إلى مفهوم نزع الصفة الإنسانيّة في السياقات الاستعماريّة، وخاصّة عند تقاطع الطبّ والاستعمار. يؤكّد نزع الصفة الإنسانيّة عن الفلسطينيّين في غزّة من قِبل مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّين، إلى جانب التجريم العامّ للتعبير عن التعاطف معهم، على تحليل فرانز فانون للاستعمار باعتباره نظامًا ينزع الصفة الإنسانيّة عن المستعمَرين من خلال إنكار إنسانيّتهم، واختزالهم إلى مجرّد أشياء قابلة للسيطرة ومحوهم سياسيًّا من خلال تجريدهم من فاعليّتهم ومن حقوقهم.[27] نلقى صدى لمفهومِ أشيل مبيمبي لسياسة الإماتة، المفهومِ الذي تُمْلي بحسبه السلطة السياديّة مَن تَجوز له الحياة ومن يجدر به الموت،[28] عندما يعتبر مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّون الفلسطينيّين في غزّة أشخاصًا غير جديرين بالتعاطف، وعندما يجرّم نظام الرعاية الصحّيّة التعبير عن التعاطف معهم من قِبل الأطبّاء الفلسطينيّين.

ذكر "حسن" -وهو أحد الأطبّاء الذين أجريتُ معهم مقابلة- تصريحات نازعة لإنسانيّة سكّان غزّة كان قد أطلقها أحد زملائه اليهود الإسرائيليّين أثناء اجتماع طاقم العمل. كانت تلك تصريحات على غرار "لا يوجد مدنيّون في غزّة"؛ "فليدمّروا غزّة" -يطْلقها المتحدّث وهو ينظر مباشرة إلى حسن ويراقب ردود أفعاله. يقول حسن: "كانت لديّ غرفة في العيادة كنت أحبس نفْسي فيها أحيانًا، فأدمع وأبكي بمفردي، وخاصّة خلال الأشهر الأولى. كنت أحبس نفْسي وأبكي. كنت أشعر دائمًا بوجع في الجسم، ولم يكن الألم نفسيًّا فقط. كنت أحسّ أنّي أحمّل نفسي كأنّي فيل عندما كنت أذهب إلى الشغل. كنت أغلق الباب على نفسي...أعني أنّه كان هذا أسلوب التفريغ الذي وجدته".[29]

أمّا "قيس"، فذكر ما مرّ به من تجربة لنزع الإنسانيّة من قِبل نظام الرعاية الصحّيّة عندما مُنِعت عنه مساعدة الفلسطينيّين في غزّة، الذين يواجهون الإبادة الجماعيّة من وجهة نظره. فبالنسبة لقيس، يكمن الواجب الأساسيّ للطبيب في مساعدةِ مَن هم بحاجة إليه. وعلى الرغم من ذلك، لم يجد نفسه غيرَ قادر على الذهاب إلى غزّة لتقديم المساعَدة على نحوٍ مباشر، أو ممنوعًا من التوقيع على رسالة تُدِين الحرب وقتل المدنيّين فحسب، بل كذلك وجد نفسه ممنوعًا حتّى من مجرّد التعبير عن تعاطفه معهم. فقد جرى تصوير كلّ تعبير عن التعاطف أو أيّ انتقاد للحرب في إطار نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ بأنّه دعم للإرهاب، وهو ما جعل مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين مشلولين وغير قادرين على الإقدام على أيّ فعل، حتّى لو كان مجرَّد تعبير عن التعاطف مع الضحايا.

26. Smith, David Livingstone. (2011). **Less Than Human: Why We Demean, Enslave, and Exterminate Others**. New York: St. Martin's Press.

27. Fanon, Frantz. (1967). **Black Skin, White Masks** (Charles L. Markmann, Trans.). Grove Press. (Original work published 1952).

28. Mbembe, Achille. (2020). **Necropolitics**. Duke University Press.

29. مقابلة شخصيّة مع حسن، (2024، 23 آب).

وأكّد قيس أنّه، بناءً على تجربته الشخصيّة، يرى أنّ نزع الصفة الإنسانيّة يَحْدث عندما يُمْلي عليك شخصٌ آخَرُ مَن يحقّ لك التعاطف معه ومن ينبغي لك أن تقف إلى جانبه. وأضاف أنّه لم يُمنَع من مساعدة الغزّيّين فحسْب، بل إنّهم (أي الأطبّاء الفلسطينيّين) لم يتمكّنوا من نشْر رسالة أو بيان ردًّا على الحرب. في هذا قال قيس: "لا أعلم كيف ستنتهي الأمور من ناحية الأطبّاء، ولكنّنا سوف ندفع ثمن أفعالنا في نهاية المطاف، لأنّنا سوف نحاسَب على أفعالنا. وسوف يسألنا الناس: "ماذا فعلتم خلال ذلك الوقت"؟ سيتعيّن علينا أن نفسّر للعالم لماذا فعلنا ما فعلناه. علينا أن نفسّر ذلك للفلسطينيّين، وأن نفسّر لأبنائنا".[30]

وقد عبّر "وسيم" عن هذا الشعور ذاته قائلًا:

> "تحسّ أنّ الحياة قد أُغلِقت عليك، وأنّ الخوف سيطر عليك وعلى وجه الخصوص في البداية... وأنّك بلا دَوْر فعّال في ظلّ حدوث شيء كبير كهذا، وإذا كانت هناك على الإطلاق لحظة ليرفع فيها المرء صوته، فهي الآن. يبدو الأمر كما لو كان خيانة لشعبك، وهذا موقف مظلم للغاية. وفي الآن نفسه، أنت كطبيب جزء من الجانب الآخر، وتساعد في إعداد نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ ليكون أكثر تحصينًا وحاضرًا لحالات الطوارئ... وهذا يجعلك تشعر بأنّك لا أخلاقيّ، وأنّك لا تملك أيّ معادلة يمكن أن تجعلك إنسانًا أخلاقيًّا".[31]

يعكس الشعورُ بالذنب أو الفشل، الناجمُ عن عدم القدرة على تقديم الدعم الفعّال للغزّيّين أو تحدّي الإجراءات القمعيّة التي تقوم بها إسرائيل (سواء أكان ذاك بمعارَضة الحرب بصوت مسموع، أَمْ بالمشارَكة في المظاهرات، أَمْ بممارسة الضغط من خلال الإضرابات، أَمْ بالتعبئة للعمل داخل نظام الرعاية الصحّيّة، أَمْ بتقديم المساعدة الطبّيّة على الأرض)، يعكس تجربة أوسع في أوساط الفلسطينيّين في إسرائيل. فقد كان بوسعهم خلال الحروب السابقة، على الأقلّ، المشارَكة في الاحتجاجات، وتنظيم إرسال المساعَدات الإنسانيّة، أو التبرُّع لجهود الإغاثة. ولكن منذ السابع من أكتوبر، قامت دولة إسرائيل بتجريم هذه الأفعال، ممّا جعل الفلسطينيّين في إسرائيل يراقبون من الطرف تَكَشُّفَ حرب الإبادة الجماعيّة على بعد كيلومترات قليلة من منازلهم، بينما هم عاجزون عن اتّخاذ أيّ إجراء ذي قيمة ردًّا على ذلك.

يصبح هذا الشعور بالذنب حادًّا لدى مقدّمي الرعاية الصحّيّة على وجه الخصوص، وذلك لأنّ الغرض من عملهم تخفيف المعاناة الإنسانيّة. ويصبح الأمر أكثر إيلامًا عندما يكون المحتاجون هم من أبناء شعبهم، وفي وقت يجدون فيه أنفسهم عاجزين عن مساعدتهم. وعلاوة على ذلك، لا يتفاقم شعورهم بالذنب بسبب شعورهم بالعجز فحسب، بل كذلك بسبب سؤال لا يفتأ يطرح نفسه على الكثير من الفلسطينيّين في إسرائيل: هل استسلموا للخوف وتخلَّوْا عن غزّة، في حين كان بوسعهم بذل المزيد من الجهد لمقاومة الترهيب الذي شيّده بعناية كلٌّ من الدولة والبنْية التحتيّة المدنيّة والمجتمع الأوسع؟

في ما يخصّ الأطبّاء الفلسطينيّين، يتعمّق لديهم الشعور بالذنْب بسبب دَوْرهم المهنيّ. وكما ذكر "وسيم،" هم يجدون أنفسهم يعملون على تعزيز نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ وعلى زيادة استعداده للطوارئ، في حين يَلْقَوْن أنفسهم يحافظون فيه على صمتهم وعاجزين عن مساعدة الغزّيّين. هذا التناقض يجعل شعورهم بالصراع الداخليّ يتفاقم، إذ يتعارض دَوْرهم كمعالجين مع عدم قدرتهم على تقديم هذه الرعاية لشعبهم الذي يحتاجها.

وبحسب سامر، عَمَدَ زملاؤه اليهود الإسرائيليّون إلى الانخراط في نزع الإنسانيّة عن الفلسطينيّين في غزّة على نحوٍ يوميّ. وقد بلغ هذا السلوك ذروته عندما تَشارَكوا صورًا من خدمتهم العسكريّة في غزّة خلال اجتماع للطاقم الطبّيّ حضره

30. مقابلة شخصيّة مع قيس، (2024، 6 آب).

31. مقابلة عبْر الزوم مع وسيم، (2024، 4 أيلول).

أعضاء فلسطينيّون. روى سامر قائلًا: "على سبيل المثال، الطريقة التي يصفون بها الناس في غزّة... حتّى الأطفال... قائلين إنّه ليس هناك أشخاص أبرياء. فكلّ شخص إمّا متورّط في الإرهاب، وإمّا يُشار إليه بلقب فأر أو جُرذ أو ما يشابه ذلك من الأسماء".[32] واختتم سامر كلامه بقوله: "في الوقت الحاضر، المطلوب من المرء، كي يواصل عمله في المستشفى، أن يصبح لا-إنسانيًّا؛ فهو ممنوع من التعبير عن التعاطف مع أيّ شخص يموت على الجانب الآخر- وإنْ كان طفلًا".[33]

بالنسبة لسامر، يرتبط نزع الإنسانيّة الذي اختبره شخصيًّا داخل نظام الرعاية الصحّيّة بعد السابع من أكتوبر بانهيار مجموعة القِيَم التي تمنح عمل الطبيب معناه بأكملها، ومن ضمن ذلك إيمانُه بمبدأ الإنسانيّة، والتعاطفُ مع الشخص الذي يموت بصرف النظر عن أصله، والمسؤوليّةُ عن تقديم العلاج لكلّ شخص بصرف النظر عن هُويّته. لقد أحسّ وكأنّ هذا الإطار الأخلاقيّ بأكمله قد جرى هدمه عندما وقّع الأطبّاء الإسرائيليّون، على سبيل المثال، على بيان يؤيّد قصف المستشفَيات في غزّة،[34] وعندما مُنِع من التعبير عن تعاطفه مع أولئك الذين يموتون في غزّة. ففي ظلّ هذه الظروف، كان استمراره في عمله يعني التخلّي عن إنسانيّته.

وبحسب كلام "لبنى"، أصبح تآكل الأخلاق في المجتمع واضحًا داخل النظام الصحّيّ الإسرائيليّ منذ السابع من أكتوبر. في هذا تقول: "كانت هناك ممرّضة دخلتْ في مواجَهة مع أحد زملائي [فلسطينيّ] في بداية الحرب... قالت له: "واو، لقد قتلنا حتّى الآن 6,000 مخرّب". فنظر إليها وقال: "لكنّنا نتحدّث عن كون أكثر من نصفهم من النساء والأطفال... هؤلاء ليسوا مخرّبين". فقدّمت شكوى ضدّه. مجرّد التشكيك في هذه الرواية... الحديث عن النساء والأطفال... لا مكان لذلك على الإطلاق خلال كلّ هذه الفترة".[35]

وذكر حسن، خلال المقابلة التي أجريتها معه، عدّة وقائع تشير إلى افتقار مقدّمي الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّين التامّ إلى الحصافة، فقد استخدم هؤلاء تعابير نازعة للإنسانيّة ضدّ الفلسطينيّين بدون أيّة كوابح. وبفعلهم ذلك، أظهروا تجاهلًا تامًّا لزملائهم الفلسطينيّين وللتأثير المحتمَل لكلماتهم وأفعالهم عليهم. والأهمّ من ذلك أنّهم أظهروا تجاهلًا صارخًا للقِيَم الأساسيّة لمهنة الطبّ. يوضّح حسن ذلك بقوله: "في الأيّام الأولى [من الحرب]، أو حتّى بعد شهر... قالت الاختصاصيّة: "ليقضوا على غزة"! ثمّ نظرتْ إليّ... كان معتقَد معظم الحاضرين أنّه ليس هنالك مدنيّون في غزّة... إذّاك قالت المديرة الإداريّة نفسها إنّ أهل غزّة يأتون بالدمى ويضعون عليها الكاتشب... ثمّ توجّهت إليّ بالسؤال: "حسن، ما اسم تلك الدمى التي يضعون عليها الكاتشب"؟[36]

ثمّ يضيف حسن قائلًا: "لقد تفاجأت في اليوم الذي قُصِفَ فيه مستشفى المعمدانيّ. وخلال إحدى الجلسات، قالت إحدى الطبيبات إنّ قصف المستشفى كان أفضل شيء لأنّه لم يَعُدْ بالإمكان اعتبار هذا المكان مستشفى. فحتّى المبادئ الطبّيّة التي تعلّمناها انمحت؛ أي إنّه على المرء أن يمحو حتّى تفكيره في الإنسانيّة لكي يتأقلم... أيْ كلّ شيء... أيْ حتّى الطبيب لا يحسّ... الأمر مهين إلى هذه الدرجة... شعور المرء بأنّه غير موجود... ممحوّ تمامًا".[37]

يتوافق تصوُّر حياة الفلسطينيّين كما لو كانت لا تستحقّ أيّة قيمة، أو كون معاناتهم لا تستحقّ التعاطف، مع مفهوم سياسة الإماتة المذكور أعلاه. وقد أعطى وزير الدفاع، يوآف چالانت، وقتذاك مثالًا صارخًا على ذلك إذ فور وقوع هجوم السابع من أكتوبر اعتبر الفلسطينيّين "حيوانات بشريّة".[38] وسرعان ما اكتسب هذا الخطاب النازع للإنسانيّة زَخْمًا

32. مقابلة شخصيّة مع سامر، (2024، 10 آب).

33. المرجع السابق.

34. Middle East Eye. (2023, October 18). Israeli doctors call for Gaza hospitals to be bombed. Middle East Eye.

35. مقابلة عبْر الزوم مع لبنى، (2024، 7 آب).

36. مقابلة مع حسن. مرجع رقم 29.

37. المرجع السابق.

38. Middle East Eye. (2023, October 9). Israel-Palestine war: 'We are fighting human animals', Israeli defence minister says. Middle East Eye.

داخل المجتمع الإسرائيليّ، بما في ذلك -كما تشير المقابلات- داخل نظام الرعاية الصحّيّة؛ إذ يشير تصوير سكّان غزّة جميعهم كأهداف عسكريّة مشروعة، وإنكار براءتهم، بل حتّى التصفيق لإبادتهم، إلى عمليّة عميقة من نزع الإنسانيّة. وما يجعل الأمر أكثر إقلاقًا هو طغيان هذه العقليّة في أماكن مثل المستشفيات التي جرى تخصيصها للرعاية والشفاء، وهو ما يضخّم الأزمة الأخلاقيّة التي يعايشها الفلسطينيّون هناك، أطبّاء كانوا أَمْ غير ذلك.

العنصريّة والتمييز العنصريّ

تعشّش العنصريّة منذ فترة طويلة داخل الإطار القانونيّ والمؤسَّساتيّ لنظام الرعاية الصحّيّة في إسرائيل. ولكن منذ السابع من أكتوبر، يجد الفلسطينيّون صعوبة متزايدة في تحدّيها ومقاومتها، وهو ما يزيد شعورهم بالعجز والاغتراب والعزلة. وتبعًا لذلك، تفاقمت معايشة العنصريّة الآن أكثر بسبب فقدان الوسائل المحدودة التي كانت متوافرة لديهم من قَبل لمعارضتها.

أشار المشاركون في المقابَلات إلى أنّ مقدّمي الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّين يمتنعون عمومًا عن الإدلاء بتصريحات عنصريّة علنيّة تجاههم، نظرًا لوجود قواعد واضحة تمنع مثل هذا السلوك لتجنُّب المشاكل داخل طاقم المستشفى؛ وذلك كما أوضح قيس. وعلى نحوٍ مماثل، أشار "سامح"[39] إلى أنّ نظام الرعاية الصحّيّة لا يسمح بأن تصبح العنصريّة مكشوفة، بسبب سعي إسرائيل إلى تقديم نفسها على أنّها دولة ديمقراطيّة قائمة على المساواة باعتبارها مبدأ أساسيًّا. يعتقد المشارِكون أنّ هذا هو السبب الوحيد الذي يَحُول دون أن تصبح العنصريّة جليّة أكثر، فإذا ما حصل ذلك فإنّه من شأنها أن تتحوّل إلى شأن طبيعيّ بسرعة. ولكن على الرغم من هذا التقييد، وصف المشاركون على نحوٍ متوافق تعرُّضهم لتعبيرات عنصريّة وأخرى نازعة للإنسانيّة موجَّهة ضدّ الفلسطينيّين في غزّة وفي الضفّة الغربيّة، معتبرين إيّاها مسألة شخصيّة للغاية لكونهم يعتبرون أنفسهم فلسطينيّين كذلك.

حسبما يقول شاليف، يعمل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ في إطار القوميّة الصهيونيّة الإقصائيّة التي تمحو على نحوٍ منهجيٍّ الهُويّةَ السياسيّة الفلسطينيّة. ويتجلّى هذا المحو في الطريقة التي يُتعامل من خلالها مع الأطبّاء الفلسطينيّين في المستشفيات الإسرائيليّة، حيث يجري تجاهُل ذاتيّتهم السياسيّة أو إعادة صياغتها تحت تسميات نحو: "العرب الإسرائيليّين"؛ "الوسط العربيّ".[40] ويتجلّى هذا التهميش السياسيّ في صرف النظر عن التصريحات العنصريّة بحقّ الفلسطينيّين في غزّة أو الضفّة الغربيّة باعتبارها لا تمتّ بِصِلة إلى الأطبّاء "العرب الإسرائيليّين". ويشكّل هذا الموقف جزءًا من القمع الأوسع للهُويّة الفلسطينيّة داخل المؤسَّسات الإسرائيليّة، بما في ذلك قِطاع الرعاية الصحّيّة، حيث يُتوقّع من الفلسطينيّين كتم هُويّتهم الوطنيّة. في هذا يكتب شاليف قائلًا إنّ هذه الآليّات لا تهمّش الهُويّة السياسيّة الفلسطينيّة فحسب، بل إنّها تعمل كذلك على مواءَمة نظام الرعاية الصحّيّة مع الهدف الصهيونيّ للدولة المتمثّل في الحفاظ على الهيمنة الإثنيّة- القوميّة اليهوديّة.[41]

وحتّى قبل السابع من أكتوبر، عَمَدَ بعض الأطبّاء الفلسطينيّين إلى التغاضي عن الاحتكاكات العنصريّة، فيما هم مقيَّدون بأخلاقيّات الحياد الطبّيّ والرواية الإسرائيليّة المهَيْمِنة والتي تصوّر نظام الرعاية الصحّيّة نظامًا غير سياسيّ ونموذجًا للتعايش. وبالفعل، في الغالب يُعتبَر هذا النظام مثالًا يجب أن تحتذي به سائر القِطاعات الأخرى،[42] وهو ما يعبّر بدَوْره عن العمليّتَيْن التوأمَيْن المتمثّلتَيْن في الاحتواء والاستبعاد داخل نظام الرعاية الصحّيّة. منذ السابع من

39. مقابلة عبْر الزوم مع سامح، (2024، 26 آب).

40. Shalev, Guy. (2022, August 25). Helsinki in Zion: Hospital ethics committees and political gatekeeping in Israel/Palestine. **American Anthropologist**, 124 (3). Pp. 1- 15.

41. المرجع السابق.

42. Linder, Ronny. (2017, March 31). Israel's medical field: A model of Jewish-Arab equality and coexistence. Haaretz.

أكتوبر، أصبح التعبير عن الانزعاج أو الإحساس بالإساءة ردًّا على التعليقات العنصريّة أو النازعة للإنسانيّة التي يُتفوَّه بها تجاه الغزّيّين، وذلك كما تبيِّنُ لنا المقابلات وحالات الفصل عن العمل المذكورة آنفًا. أصبح يُفسَّر في كثير من الأحيان على أنّه "انحياز إلى غزّة"، وهو ما يعادل بدَوْره دعم حماس وبالتالي دعم الإرهاب. والأهمّ من ذلك، يخاطر بنفسه كلُّ مَن يتفوّه بمثل هذه التعابير إذ يعتبره زملاؤه اليهود الإسرائيليّون "ضدّنا،" أي ضدّ الأغلبيّة اليهوديّة، وهو ما قد يصبح أرضيّة تؤدّي إلى ملاحَقته، بل قد يَبلغ الأمر حدّ فصله، على نحوِ ما جرى إخطار مقدِّمي الرعاية الصحّيّة به بوضوح منذ الأيّام الأولى لاندلاع لحرب. في هذا يقول وسيم: "لقد أخبرونا على نحوٍ مباشر... من ينتقد الجيش، ومن ينتقد الدولة، ومن يَقُلْ إنّ هذه جرائم حرب، فمكانه ليس هنا".[43]

أفاد سبعة من الأطبّاء الفلسطينيّين التسعة الذين قابلتهم أنّهم واجهوا العنصريّة طيلة فترة تعلُّمهم وتدرُّبهم وحياتهم المهنيّة. ولا تتجلّى هذه العنصريّة في التمييز الصريح فحسب، بل كذلك في قمع هُويّتهم السياسيّة والقيود التي تُفرَض على نشاطهم السياسيّ، في الحرم الجامعيّ أو في مَرافق العمل الطبّيّة. على سبيل المثال، طُرِد أحد الأشخاص ممّن قابلتهم قبل السابع من أكتوبر من عمله، وذلك بسبب مشاركته في مظاهرة ضدّ حرب عام 2018 على غزّة ورفضه الاعتذار عن ذلك. وروى آخَر أنّه شهد طاقمًا طبّيًّا إسرائيليًّا يُدْلي بتصريحات عنصريّة حول المعتقَلين الفلسطينيّين من غزّة والضفّة الغربيّة، ووصف تلك الواقعة باعتبارها حدثًا عنصريًّا. في هذا الشأن تقول لُبنى: "العنصريّة متجذّرة بعمق في النظام الصحّيّ... وغالبًا ما يجد المرء نفسه يواجه معضلات حول ما يجب عليه أن يتصرّف لأنّه أمر نعاينه ونعايشه كلّ يوم، ويصبح روتينيًّا... كنت خائفة من حدوث ذلك... ولا أريد أن يَحْدث، لأنّ تذويت العنصريّة وجعْلها جزءًا يوميًّا وعاديًّا من الحياة هو تمامًا كما يَحْدث الآن".[44]

وعبّر سامر وقيس عن مشاعر مماثلة بشأن تذويت وتطبيع العنصريّة واعتبارها أمرًا عاديًّا في صفوف المهنيّين الطبّيّين الفلسطينيّين. يقول سامر: "يبدو الأمر وكأنّه هناك تطبيع للتعليقات العنصريّة إلى حدّ يجعل المرء يتوقّف أحيانًا عن الشعور بأنّ تلك تعليقات عنصريّة. يأخذ بالإحساس أنّها شيء طبيعيّ".[45] وأشار قيس إلى التعليقات التي باتت تتكرّر عندما روى عن التجارب التي مرّ بها في الأيّام الأولى التي تلت السابع من أكتوبر: "كانت هناك أشياء كثيرة. على سبيل المثال، أن يقول شخص على مسمع منك إنّ هؤلاء العرب إرهابيّون، جميعهم إرهابيّون... فليُقتَلوا جميعهم".[46] وذكر قيس المحتوى الذي ينشره زملاؤه على حساباتهم الشخصيّة على مواقع التواصل الاجتماعيّ عن الفلسطينيّين والعرب. بحسب رأيه، لن يَذْكر أحدٌ هذه الآراء أمامه أو أمام غيره من الأطبّاء الفلسطينيّين على نحوٍ علنيّ، لأنّ من شأن ذلك أن يضرّ بالعلاقات داخل طاقم العمل. ومع ذلك، تمنحنا مثل هذه المنشورات فكرة عن معتقداتهم وعن مواقفهم الشخصيّة. يقول قيس: "عندما أدخل دون أن يلاحظني أحد، أنزعج حين أسمعهم يقولون أشياء على غرار "العرب هنا إرهابيّون أكثر من أولئك الذين في غزّة"... ولكنّني أتعلّم أن أسكت على مضض إزاء ذلك، ودونما صعوبة. برأيي، طوّر الأطبّاء الفلسطينيّون في الداخل درجة معيَّنة من التأقلم. هذه ليست لامبالاة، بل هي تأقلم. وهذه قدرة عقليّة، وأعتقد أنّها قوّة جيّدة".[47]

موضوعة تكيُّف الأطبّاء الفلسطينيّين مع نزع الإنسانيّة عن الفلسطينيّين -التي تتمدّد في أحيان كثيرة لتطول الأطبّاءَ أنفسهم من خلال العنصريّة أو المحو السياسيّ- تَلزمها دراسةٌ أكثر تعمُّقًا. يُثْبِت تطبيعُ التصريحات العنصريّة، وإلى جانبه الشعور الطاغي بالعجز عن تحدّيها أو مقاومتها، مدى فاعليّة نظام الرعاية الصحّيّة في "ترويض" الأطبّاء الفلسطينيّين. ويعمل هذا النظام في إطار الهيمنة اليهوديّة، وهي السرديّة التي تَستبعد من الإدماج الكامل حتّى أولئك الفلسطينيّين الذين ينأَوْن بأنفسهم عن الهُويّة الفلسطينيّة ويطلقون على أنفسهم التسمية "العرب الإسرائيليّين".

43. مقابلة مع وسيم. مرجع رقم 31.
44. مقابلة مع لبنى. مرجع رقم 35.
45. مقابلة مع سامر. مرجع رقم 32.
46. مقابلة مع قيس. مرجع رقم 30.
47. المرجع السابق.

الترهيب والإسكات

ذكر سبعة أشخاص من أصل تسعة ممّن قابلتهم روايات مفصَّلة عمّا عايشوه من الترهيب والإسكات القسريّ. وقد أتى جميعهم على ذكر حالات جرى فيها طرد فلسطينيّين من مقدِّمي الرعاية الصحّيّة من وظائفهم بسبب نشاطهم على وسائل التواصل الاجتماعيّ، وذكروا كذلك ما تلاها من عواقب شخصيّة عانَوْا منها. بالإضافة إلى ذلك، تبيَّنَ أنّ الإسكات القسريّ يتسبّب في ضائقة عاطفيّة عميقة، بما في ذلك مشاعر القمع والإذلال والمحو. في هذا الشأن قال قيس: "إنّ ما حدث في المستشفى بعد أيّام من السابع من تشرين الأوّل /أكتوبر جعل الجميع يلتزمون الصمت... فإمّا أن تكون على هذا الجانب أو على ذاك الآخَر... لقد عقدوا جلسة استماع قبل الطرد إذا نشر أحدٌ أيَّ شيء أو حتّى عبّر عن تعاطفه مع أطفال غزّة... وفي الوقت نفسه، ظلّ الطرف الآخر حرًّا ينشر ما يحلو له على الفيسبوك".[48]

لقد قدّمتْ شهادة لبنى وصفًا شاملًا لردّ الفعل المتطرّف لنظام الرعاية الصحّيّة على أحداث السابع من أكتوبر، وعلى جميع الآراء المعارِضة للإجراءات العسكريّة الإسرائيليّة في غزّة، حتّى عند مقارنته بفترات سابقة من التوتُّر السياسيّ:

> "سادت منذ السابع من أكتوبر أجواء من الترهيب والخوف كانت أشدّ حدّة من أيّ وقت مضى. مقارَنةً بموجات التصعيد والهجمات السابقة على غزّة التي شهدتها من قبل، بدت هذه المرّة مختلفة. إنّها الأسوأ. فمنذ السابع من أكتوبر حتّى الآن، أصبح الإسكات والقمع عميقَيْن إلى حدّ الوريد. فالملاحَقة والعنصريّة دخلتا إلى حدّ الوريد. بالنسبة للكلّ. إنّها المرّة الأولى التي أرى فيها مثل هذا الأمر، حتّى من طرف الزملاء والأصدقاء. وللمرّة الأولى، لا أجرؤ حتّى على التحدُّث... في البداية، أرسلت الإدارة رسائل تفيد أنّه بموجِب قانون مكافَحة الإرهاب، سيؤدّي أيّ تصريح يمكن تفسيره كدعم للإرهاب إلى اتّخاذ إجراءات تأديبيّة، وقد يؤدّي إلى الفصل من العمل. صدر هذا التهديد منذ اليوم الأوّل. صدر مباشرة عن إدارة الموارد البشريّة. وفي أعقاب ذلك، بدأنا نسمع قصصًا عن أشخاص طُرِدوا من وظائفهم، بسبب رفع علم أو حمامة سلام. وسرعان ما بدأت قصص الملاحَقة هذه بالانتشار".[49]

وَصفتْ لبنى تجربتها المؤلمة من القمع الناتج عن الإسكات القسريّ قائلة: "من الصعب جدًّا أن يعيش المرء مقموعًا، وهو غير قادر على المجاهَرة أو الاحتجاج على الظلم. بودّي لو كان بإمكاني أن أصرّح علانيَةً بأنّ هناك إبادة جماعيّة تَحْدث، وأنْ أعبّر عن كلّ ما أومن به حقيقةً. ولكن كما هو واضح، لا أستطيع ذلك. يشعر المرء باستمرار وكأنّ هناك حواجز تمنعه من التعبير عن معتقداته وأفكاره".[50]

أمّا سامر، فقد أعرب عن قناعته بأنْ لا طائل من وراء مناقشة هذه القضايا في ظلّ العسكرة العميقة وديناميكيّات القوّة غير المتوازنة بين العرب واليهود داخل نظام الرعاية الصحّيّة، لكونها تعيق الحِوار الصادق، إذ قال: "إذا صرّح المرء بأيّ شيء ممّا يمْكن تأويله على أنّه دعْم للإرهاب -وإن كان ذاك اتّخاذ موقف ضدّ قتل الأطفال، أو شيئًا من هذا القبيل- فسيتعرَّض للطرد من العمل".[51]

ووصف وسيم اجتماعًا للموظَّفين عُقِد في الأسابيع التي تلت السابع من أكتوبر، لمعالجة التوتُّرات بين الموظَّفين اليهود والعرب، على النحو التالي:

48. المرجع السابق.
49. مقابلة مع لبنى. مرجع رقم 35.
50. المرجع السابق.
51. مقابلة مع سامر. مرجع رقم 32.

"لقد تعرّضنا للهجوم. لم يكن هذا الاجتماع الكبير مخصَّصًا للاستماع إلينا. بدأوا في الهجوم علينا مباشرة، وهم يتساءلون عن سبب إحجامنا عن الإدانة، وعمّا نقوم به، وعن سبب عدم قيام ممثّلينا بالإدانة... أتفهمين؟! هذه هي المقولات التي ألقَوْا بها علينا. وكما ذكرت لك، أنا أدرك كلّ هذه الأمور تمام الإدراك (ديناميكيّات القوّة، والعنصريّة داخل نظام الرعاية الصحيّة، وعسكرته)، ولكن ثمّة خوف شديد يشتعل في داخل المرء، لأنّنا في الخلفيّة نسمع عن الأطبّاء الذين جرى فصلهم، وعن آخرين جرى اعتقالهم. لم تَعُدْ بيئة العمل مجرّد بيئة رقابة فحسب، بل تخطّت ذلك إلى تهديدات فعليّة. وعلى الرغم من أنّني لم أقل أيّ شيء، فإنّ حقيقة بقائي صامتًا أثارت تساؤلات. لماذا لا يتحدّث المرء صراحة؟ لأنّه يدرك أنّه من الممكن استخدام كلّ كلمة يقولها ضدّه، وقد يقومون بتحريفها".[52]

وربّما يكون ما ذكره وسيم أحد الأمثلة الأكثر كشفًا للتحوُّلات الكبيرة التي مرّ بها الأطبّاء الفلسطينيّون، إذ صرّح قائلًا:

"ورغم أنّني وصلت إلى معادلة تجعلني أعتقد أنّني لا أخشى شيئًا -لأنّني إذا فتحت الباب للخوف فسيسيطر عليّ- وعلى الرغم من أنّني درّبت نفسي على هذا الأمر كثيرًا، انقلب كلّ شيء رأسًا على عقب. فقد انهار كلّ ما تعلّمته ووعدت نفسي به، مثل عدم السماح لأيّ يهوديّ أو صهيونيّ بتخويفي أو المحافَظة على الشعور بالأمان في منصبي المستقرّ والثابت. هناك شيء جديد لم نشهده من قبل في ما يتعلّق بعدوانيّتهم وسلطتهم؛ لأنّهم في صراع وجوديّ من أجل أبنائهم وبناتهم وأزواجهم، وأدرك الآن أنّهم يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون. يمكنهم الاتّصال بالشرطة، والاتّصال بمكان عملك لطردك، وقد تقوم الشرطة باعتقالك. نزعة الانتقام واضحة لا لبْسَ فيها".[53]

استهدف المرضى بعضَ المشاركين في الدراسة بسبب منشوراتهم على موقع فيسبوك؛ إذ اتّهمهم المرضى بدعم إرهاب حماس وطالبوا بإزالتها. ولدهشتهم، وقف مقرّ العمل إلى جانبهم. ومع ذلك، ذكروا أنّهم منذ هذه الحادثة امتنعوا عن النشر على وسائل التواصل الاجتماعيّ، وذلك على الرغم من أنّ منشوراتهم كانت تركّز على المدنيّين وعلى انتهاكات حقوق الإنسان.

كان الإسكات والرقابة المنهجيّان والبنيويّان كلاهما سائدَيْن منذ أمد بعيد داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، وذلك قبل أحداث السابع من أكتوبر.[54] لاحظ الأشخاص الذين أجريْتُ معهم المقابَلات حدوثَ تصعيد كبير؛ إذ بسبب الترهيب يمتنع اليوم الأفراد الذين جاهروا فيما سبق بالحديث عن الانتهاكات الإسرائيليّة عن المجاهرة برأيهم اليوم. لقد غرست عمليّات الفصل التي تلت السابع من أكتوبر مباشرة شعورًا جماعيًّا بالخوف في أوساط مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين، وهو ما أدّى إلى ترسيخ صمتهم القسريّ.

لقد شعر العديد من الأطبّاء الفلسطينيّين بالعجز عن مواجهة نظام الرعاية الصحّيّة حتّى قبل السابع من أكتوبر. وبعد السابع من أكتوبر، ومع تجريم التعاطف ووصم المعارَضة بوصفها دعمًا للإرهاب، تزايدت توقُّعات الصمت. وفي الحالات التي لم يتمكّن فيها الأطبّاء الفلسطينيّون من الخضوع "للانضباط" وعَمَدوا إلى التشكيك في الرواية السائدة، جرى اتّخاذ إجراءات فوريّة لإعادة فرض السيطرة من جديد. وهذه هي المواقف التي يحصل فيها تصعيد للخوف من المراقَبة والترصُّد المضاعفَيْن وصولًا إلى الفصل والتجريم. لقد صُمِّم هذا النهج القاسي لضمان عدم قيام الأطبّاء الفلسطينيّين بتعطيل الرواية المهَيْمِنة التي تُشَرْعِن الحرب وتصوّر جميع الإجراءات المَنُوطة بها بوصفها إجراءات مبرَّرة.

52. مقابلة مع وسيم. مرجع رقم 31.

53. المرجع السابق.

54. Shalev, Guy, & Tanous, Osama. Reference No. 22.

العسكرة

تحمل عسكرة نظام الرعاية الصحّيّة جانبين؛ أوّلهما بنيويّ وثانيهما شكليّ. وهما يسبقان أحداث السابع من أكتوبر.[55] فعلى سبيل المثال، غالبًا يكون كبار المسؤولين (كمديري المستشفيات -مثلًا) من جنود الاحتياط الدائمين في الجيش. وقد صرّحت المستشفيات علنًا بدعمها للمجهود الحربيّ، وكذلك يتنقّل عدد كبير من مقدّمي الرعاية الصحّيّة باستمرار بين الخدمة الاحتياطيّة وعملهم في المستشفيات. وبالإضافة إلى هذا، تعمل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، التي دعمت طَوال الوقت سياسات إسرائيل في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة،[56] على نحوٍ نشط للتأثير على الرأي العامّ العالميّ منذ السابع من أكتوبر، وذلك من خلال نشر المقالات وإصدار رسائل إلى المنظَّمات الدوليّة التي تعارض حرب إسرائيل في غزّة. ويمكن تتبُّع هذا المجهود من خلال عدد من رسائل البريد الإلكترونيّ التي أرسلها تْصِيُون حاجاي، رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، منذ السابع من أكتوبر إلى أعضاء في نظام الرعاية الصحّيّة. تُعَدّ نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة جسمًا قويًّا داخل نظام الرعاية الصحّيّة في البلاد، وتمثّل نحو 95% من مجموع الأطبّاء في إسرائيل.[57] في رسالة مكتوبة أرسلها حاجاي إلى المتخصّصين في الرعاية الصحّيّة في 25 تشرين الأوّل 2023، وَرَدَ ما يلي:

> "تعمل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة بلا كلل للتأثير على الرأي العامّ العالميّ، وينعكس ذلك من خلال المقالات أو من خلال المنظَّمات الدوليّة المختلفة التي تحاول إدانة الحرب الإسرائيليّة في غزّة. تقوم نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة أسبوعيًّا بالردّ على عشرات الادّعاءات الناقدة، وحتّى تلك الكاذبة أو التي في غير محلّها في بعض الأحيان، داعمةً ردودها هذه بالحقائق والبيانات الحقيقيّة، مثل قصف المستشفيات في غزّة، واستخدام القنابل المحظورة بموجب اتّفاقيّة جنيف، وتعمُّد اختلاق أزمة إنسانيّة".[58]

وفي 15 تشرين الثاني 2023، بُعث بالرسالة التالية إلى طرف بقيت هُويّته طيّ الكتمان بخصوص المقاطَعة الأكاديميّة الإيطاليّة لإسرائيل: "باعتبارنا المنظَّمة الممثِّلة لأطبّاء إسرائيل، صُدِمنا وذُهِلنا عندما قرأنا ما ورد في "الدعوة إلى اتّخاذ إجراءات عاجلة لوقف إطلاق النار الفوريّ واحترام القانون الإنسانيّ الدوليّ" التي وقّع عليها أكاديميّون إيطاليّون. ليس بوسعنا التحدُّث باسْم الحكومة الإسرائيليّة أو الجيش الإسرائيليّ. نتوجّه إليكم بوصفنا أطبّاء إسرائيليّين".[59]

ومن ثَمّ أشاد بالعلاج الطبّيّ الذي تقدّمه إسرائيل للمرضى الفلسطينيّين من غزّة ومن الضفّة الغربيّة، وبالتدريب الذي تقدّمه للأطبّاء الفلسطينيّين من الأراضي المحتلّة في المستشفيات الإسرائيليّة، قبل أن يطرح تساؤله: "إن كانت هناك مقاطَعة أكاديميّة لإسرائيل، فمَن سيعاني أكثر بحسب رأيكم"؟ وفي الرسالة ذاتها، يشير إلى استغلال المؤسَّسات الأكاديميّة لتحقيق أَجِنْدات سياسيّة. فضلًا عن هذا، نقل هاجاي إلى الأعضاء رسالة من طرف المدير العامّ لوزارة الصحّة الإسرائيليّة والموجَّه إلى أعضاء نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، والمؤرَّخة في 12 كانون الأوّل 2023 وموضوعها سفر الأطبّاء الإسرائيليّين. وكتب فيها ما يلي:

> "شهدنا منذ اندلاع الحرب محاولات من قِبل جهات ومنظَّمات طبّيّة وأكاديميّة مختلفة في الخارج تسعى إلى استبعاد الأطبّاء والمؤسَّسات الإسرائيليّة من الأنشطة الأكاديميّة والبحثيّة والعياديّة المهمّة بسبب الحرب، وهي مصحوبة بانتقادات سلبيّة حادّة على سلوك إسرائيل [...] تبذل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة كلّ ما في وسعها لمواجهة هذه المواقف والإصدارات، وللردّ على هذه الادّعاءات على نحوٍ مستمرّ وبموضوعيّة. وفي هذا السياق، فإنّ السماح للأطبّاء بالسفر إلى الخارج والمشارَكة في المؤتمرات والأنشطة الأكاديميّة

55. Tanous, Osama, & Majadli, Ghada. Reference No. 10; Tanous, Osama. Reference No. 11.

56. Tanous, Osama, & Majadli, Ghada. Reference No. 10.

57. Jewish Medical Association UK. (n.d.). Israeli Medical Association.

58. المرجع السابق.

59. وجّه تْصِيُون حاجاي، رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، رسالته إلى الأطبّاء في إسرائيل، وأبرز فيها جهود الجمعيّة في مواجَهة الانتقادات الدوليّة للعمليّات العسكريّة الإسرائيلية في غزّة. أُرسِلت في 25 تشرين الأوّل 2023.

والبحثيّة هو أمر بالغ الأهمّيّة؛ إذ من شأن ذلك أن يمكّنهم من الإسهام في الدبلوماسيّة العامّة لإسرائيل، وخاصّة في ما يتعلّق بالمنظومة الصحّيّة".[60]

من الجدير بالذكر أنّه لا نقابة عمّاليّة مستقلّة للأطبّاء الفلسطينيّين في إسرائيل، وأنّ الأطبّاء الفلسطينيّين لا يتمتّعون بتمثيل مؤثّر في نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، على الرغم من ادّعائها أنّها هيئة مهنيّة تمثّل جميع الأطبّاء في البلاد؛ إذ تتماهى نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة مع مصالح الدولة، وغالبًا ما يكون ذلك على حساب الأخلاقيّات الطبّيّة والقانون الدوليّ.[61] كما أنّها تصنّف على نحوٍ انتقائيّ بعضَ النشاطات على أنّها نشاطات "سياسيّة." فعلى سبيل المثال، نلقاها متسامحة مع الدبلوماسيّة المؤيِّدة لإسرائيل والمساعَدة العسكريّة التي يقدّمها الأطبّاء، فيما هي تُقْدِم على إدانة أنشطة أخرى مثل تأييد المقاطعة الأكاديميّة باعتبارها تجاوزًا سياسيًّا. ويعزّز هذا النهجُ حقيقةَ كون نظام الرعاية الصحّيّة، ومن خلال الهيئات القياديّة مثل نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، كيانًا غير محايد، بل كيانًا يسهّل إنتاج الدولة للعنف وتهميش الأصوات الفلسطينيّة في صفوف المجتمع الطبّيّ. يؤكّد الافتقارُ إلى تمثيل فلسطينيّ لائق في نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة الحاجةَ إلى نقابة تخصّهم، على نحوِ ما يؤكّد أربعة من الذين أُجرِيَتْ معهم المقابَلات على الأقلّ. فقد أعرب هؤلاء عن الطبيعة الملحّة لإنشاء نقابة عمّاليّة تخصّ الأطبّاء الفلسطينيّين وحدهم، وذلك ليس باعتبار شعورهم بأنّ نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة لا تؤدّي مَهَمّتها في تمثيل قضاياهم فحسب، بل كذلك بسبب تواطؤها النشط في العنصريّة التي تستهدف الفلسطينيّين.

بالإضافة إلى ذلك، أشار ثمانية من المشارِكين إلى زيادة ملحوظة في عسكرة نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ بعد السابع من أكتوبر. فقد أشار المشارِكون إلى أنّ المَرافق الصحّيّة باتت منذ السابع من أكتوبر تُبرِز على نحوٍ مطّردٍ الرموزَ العسكريّة التي تماثل تلك المعروضة في المؤسَّسات والفضاءات العامّة الأخرى. أصبحت اللافتات التي تحمل الشعار "معًا سننتصر" تظهر بصورة جليّة في مختلف الأماكن. كذلك وُجِّهت الفِرَق الصحّيّة للقيام بتثبيت دبّوس يحمل الشعار ذاته على معاطفهم المخبريّة، ورُفِع العلَم الإسرائيليّ على نحوٍ بارز في العديد من المواقع في المَرافق الطبّيّة.

لقد تجاوز دعم الحرب العروض الرمزيّة في المستشفيات ومَرافق الرعاية الصحّيّة، ممتدًّا ليصل إلى المشارَكة العسكريّة الفعّالة في الحرب من قِبل الأفراد العاملين في نظام الرعاية الصحّيّة. لقد أتى الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات على ذِكر عدّة أمثلة، بمن في ذلك قيس الذي قال: "ما يثير الإحساس بالخوف رؤية طبيب يرتدي زيًّا عسكريًّا يتجوّل في المستشفى [...] حتّى بعض رؤساء الأقسام يتجوّلون مسلّحين. هناك نحو أربعة رؤساء أقسام يحملون السلاح [...] لقد سمعت أنّ إدارة المستشفى أجبرت كلّ رئيس قسم على حمل السلاح [...] ولكنّني لا أصدّق ذلك. لم أتحقّق من الأمر، وأشكّ في صحّة هذا؛ وذلك أنّ هؤلاء الذين يحملون السلاح عنصريّون. وربّما يكون أحدهم من الذين وقّعوا على الرسالة التي شَرْعَنتْ تدمير المستشفيات في غزّة".[62]

وأفاد كلّ من سامر وقيس أنّ بعض أفراد الطاقم الطبّيّ الإسرائيليّ تشاركوا صورًا شخصيّة من خدمتهم العسكريّة في غزّة مع أعضاء الطاقم الآخرين، إمّا أثناء الاجتماعات أو في مجموعات الدردشة على تطبيقات المراسلة. في هذا يقول سامر: "إحساسي هو أنّي أذهب كلّ يوم للعمل جنبًا إلى جنب مع مجرمي حرب. المستشفى مجنَّد كلّيًّا عن طريق رسائل البريد الإلكترونيّ اليوميّة والأَعلام المنتشرة في كلّ مكان... عندما يدخل المرء إلى المستشفى يحسّ وكأنّه جزء من موقع إدارة حرب".[63]

60. نقل نْصِيُون حاجاي رئيس نقابة الأطبّاء الإسرائيليّة، رسالة المدير العامّ لوزارة الصحّة للأطبّاء الإسرائيليين، إلى الأطبّاء الإسرائيليّين ويبرز فيها التشديد على أهمّيّة السفر إلى الخارج لمواجهة جهود الإقصاء ودعم الدبلوماسيّة الإسرائيليّة العامّة، وهي تعود إلى 12 كانون الأوّل 2023.

61. Tanous, Osama, & Majadli, Ghada. Reference No. 10.

62. مقابلة مع قيس. مرجع رقم 30.

63. مقابلة مع سامر. مرجع رقم 32.

أمّا وسيم، فقد قدّم لنا ما عايشه خلال اجتماع الطاقم المذكور آنفًا، إذ روى قائلًا:

> "ظننت بكلّ براءة أنّنا سنتمكّن من التحدّث عن الألم الذي يشعر به كلا الطرفين، وأنّنا سنحافظ على الاحترام المتبادل من أجل إبقاء بيئة العمل محايدة وبلا سياسة، بحيث لا يفرض أيّ شخص آراءه على الآخرين لكي نتمكّن من الاستمرار في العمل معًا. ولكن ما صدمني منذ اللحظة الأولى، على الرغم من منصبي مديرًا يشرف على العديد من الأشخاص، قولهم أشياء على غرار ما يلي: "لقد سمعنا أنّ هناك العديد من المؤيّدين العرب للإرهاب، ويجب على مكان العمل اتّخاذ الإجراءات اللازمة للتحقيق في ما إذا كان لدينا أيّ موظّفين يتعاطفون مع الإرهاب". فحتّى المسؤول عنّي صرّح بلا لفّ أو دَوَران أنّه يجب أن يكون واضحًا أنّه "كلّ من ينتقد الجيش، وكلّ من ينتقد الدولة، أو يصف هذه الأفعال بأنّها جرائم حرب، مكانه ليس هنا". كان الأمر، كمنطلَق، مرعبًا؛ إذ لقد قالوا ذلك بكلّ صرامة. لقد أذهلتني السهولة التي تَحوَّل من خلالها كلّ واحد إلى جنديّ يحمل هذا النوع من السلطة، وخاصّة النساء، لأنّهنّ أمّهات لجنود".[64]

تسلّط هذه الأمثلة الضوء على كيفيّة ترسيخ القِيَم والمبادئ والممارَسات العسكريّة وتطبيعها داخل الحياة والمؤسَّسات المدنيّة من خلال عمليّة العسكرة. ومن بين هذه الممارسات تَنَقُّلُ الموظَّفين المستمرُّ بين الخدمة العسكريّة الاحتياطيّة في غزّة والعمل الطبّيّ في المستشفيات. وثمّة مثال آخَر على ذلك نجده في الموافَقة على خطّة جديدة لقبول الطلبة الذين جُنِّدوا للحرب بموجِب أمر الطوارئ حامل الرقم 8، والذين كانوا يَدرسون في الخارج في كلّيّات الطبّ في إسرائيل. ففي نهاية المطاف، مُنِح الجنود وأُسَرهم مجموعة واسعة من الامتيازات والإقامات وغيرها من الترتيبات التفضيليّة. تُوضِّح هذه التدابير كيفيّة إعادة تخصيص الموارد لخدمة الأهداف العسكريّة، وهو ما يؤدّي إلى إعادة تشكيل المؤسَّسات ومُواقَتَتها مع الأهداف العسكريّة، على نحوِ ما تُوضِّح كاثرين لوتس.[65]

وأتى أربعة من التسعة الذين أجريتُ معهم المقابَلات على ذكْر الرسالة المفتوحة التي وقّعها نحوُ مئة طبيب إسرائيليّ، وورد فيها أنّ من "حقّ وواجب" الجيش الإسرائيليّ مهاجمة المستشفيات في غزّة، وهي (المستشفيات) التي أشير إليها بالاسم "أَوْكار الإرهابيّين".[66] وأشارت إحدى هؤلاء إلى أنّ أحد زملائها الإسرائيليّين كان من مؤيّدي الرسالة المفتوحة، وأنّه يتسنّم دَوْرًا إداريًّا يتولّى من خلاله مسؤوليّة الإشراف على عدد كبير من الأطبّاء الفلسطينيّين. وعلاوة على ذلك، ذكرتْ أنّه كرّر تأييده للبيان خلال اجتماع لاحق في المستشفى.

تؤكّد الأمثلة التي أتينا على مناقَشتها أعلاه -بالإضافة إلى الانخراط المتزايد لمقدّمي الرعاية الصحّيّة في تسهيل وصول الأسلحة الناريّة إلى المدنيّين- على التطبيع الشامل للعنف داخل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ. فقد أصبحت اليوم عمليّة استيفاء "التصريح الصحّيّ" (الذي يُعَدّ شرطًا أساسيًّا للحصول على ترخيص حيازة الأسلحة الناريّة) في عِداد واجبات طبيب العائلة؛[67] وهو ما يكشف عن العنف المتجذّر في المجال الصحّيّ في إسرائيل.

64. مقابلة مع وسيم. مرجع رقم 31.

65. Lutz, Catherine. (2002). Making war at home in the United States: Militarization and the current crisis. American Anthropologist, 104 (3). Pp. 723- 735.

66. Middle East Eye. Reference No. 34.

67. للاطّلاع على المزيد في ما يخصّ دَوْر العائلة الإسرائيليّة، انظروا: أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل. (2024). إضفاء الطابع الطبّيّ على التسليح: انتشار الأسلحة في الأماكن المدنيّة، والعنف، ودَوْر المجتمع الطبّيّ. أطبّاء لحقوق الإنسان- إسرائيل.

الاستنتاجات

تكشف التجارب التي مرّ بها الأطبّاء الفلسطينيّون داخل النظام الصحّيّ الإسرائيليّ بعد السابع من أكتوبر عن منظومة متجذّرة ومتنامية تعمل على نزع الإنسانيّة وعلى المحو السياسيّ والعسكرة. لقد جُرِّدَ الأطبّاء الفلسطينيّون -على الرغم من تشكيلهم جزءًا كبيرًا من القوى العاملة في مجال الرعاية الصحّيّة- من فاعليّتهم السياسيّة، كما جرى حرمانهم من القدرة على التعبير عن التضامن مع الفلسطينيّين في غزّة الذين تعرّضوا للعنف الشديد والمميت. يشكّل نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ جزءًا لا يتجزّأ من بُنى الدولة، ولا يمكن اعتباره من وجهة نظر سياسيّة فضاءً محايدًا. فقد أعلنت المَرافق الصحّيّة على الملأ دعمها للمجهود الحربيّ، وكان جنود الاحتياط من مقدّمي الرعاية الصحّيّة يتنقّلون باستمرار بين الخدمة العسكريّة وعملهم الطبّيّ المنتظم في أقسام المستشفيات. إضافة إلى هذا، يمتدّ دعمهم ليصل إلى قمع معارضة مقدّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين للحرب وانتقادهم لها، وإلى العمل على التأثير على الرأي العامّ العالميّ في أعقاب السابع من أكتوبر، ليتواءم بالتالي نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ مع أهداف الدولة العسكريّة والسياسيّة الأوسع.

كانت إحدى الموضوعات الرئيسيّة التي برزت من المقابَلات، التي أُجْرِيت خلال البحث المخصَّص لهذه الورقة، محو الهُويّة الفلسطينيّة والفاعليّة السياسيّة الفلسطينيّة في قلب نظام الرعاية الصحّيّة. فعلى الرغم من كون الفلسطينيّين يشكّلون نحو ربع مجْمَل جميع الأطبّاء والممرّضين في إسرائيل، فإنّهم يظلّون مهمَّشين من ناحية فعليّة، فيما يقوم تواجدهم في النظام الصحّيّ مقام القناع الذي يخفي ديناميكيّات القوّة الفاعلة الأوسع. في الغالب، يُطْلَق المسَمّى "العرب الإسرائيليّون" على هؤلاء الفلسطينيّين، وهو المصطلح الذي ينكر هُويّتهم الفلسطينيّة ويقلّل من وجودهم ليصبح شكلًا من أشكال الدمج الرمزيّ الذي لا يحمل أيّ وزن سياسيّ. يضمن نظام الرعاية الصحّيّة قدرتهم على الإسهام مهنيًّا، ولكنّهم لا يستطيعون حشد قدراتهم سياسيًّا ولا يمتلكون القدرة على إثارة القضايا التي تخصّ مجتمعهم. وقد تفاقَمَ هذا المحو السياسيّ من خلال تجريم التعاطف بعد السابع من أكتوبر، حيث أصبح أيّ تعبير عن التعاطف مع الضحايا المدنيّين في غزّة بمثابة دعم للإرهاب يستوجب أن يعاقَب مرتكبوه.

في هذا السياق، يتّخذ نزع الإنسانيّة شكلَيْن أساسيَّيْن. الشكل الأوّل نزع الصفة الإنسانيّة عن الفلسطينيّين في غزّة، الذين يُعتبرون روتينيًّا غير جديرين بالتعاطف، حتّى من قِبل الإسرائيليّين المتخصّصين في الرعاية الصحّيّة، وذلك كصدى لسرديّة الدولة الأوسع التي تحطّ من قيمة حياة الفلسطينيّين وتتجاهل معاناتهم. الشكل الثاني أنّ الأطبّاء الفلسطينيّين العاملين في إسرائيل يتعرّضون لنزع إنسانيّتهم من خلال حرمانهم من القدرة على الفعل؛ إذ لا يمنعهم النظام من تقديم المساعَدة الطبّيّة للمرضى في غزّة فحسب، بل كذلك يجرّم الأمر قدرتهم المبدئيّة عن التعبير عن أنفسهم. ونتيجة ذلك يطغى صراع داخليّ عميق في أوساط هؤلاء الأطبّاء، الذين يتمثّل دَوْرهم المهنيّ في تخفيف المعاناة الإنسانيّة، ولكنّهم واقعون في حالة من الشلل بسبب تهديد بالاضطهاد من طرف الدولة.

أعرب جميع الأطبّاء الذين أجريتُ معهم المقابَلات عن شعورهم بالذنب والعجز في مواجَهة عدم قدرتهم على اتّخاذ إجراءات ذات قيمة. ففي الجولات السابقة من الصراع، كان بمقدور الفلسطينيّين في إسرائيل على الأقلّ تنظيم الاحتجاجات أو الانخراط في أعمال الإغاثة الإنسانيّة. ولكن منذ تجريم مثل هذه النشاطات بعد السابع من أكتوبر، أصبح الأطبّاء الفلسطينيّون يراقبون تطوُّرات الحرب من على الهامش، بينما هم عاجزون عن التدخُّل. ومن ناحية مقدّمي الرعاية الصحّيّة، هذا الجمود موجع على نحوٍ خاصّ؛ وذلك أنّه يحرمهم من إمكانيّة ممارَسة الدَّوْر الإنسانيّ المرتبط بمهنتهم.

ويتفاقم لديهم شعورٌ طاغٍ بالذنب بسبب موقعهم: ففيما هم ممنوعون من مساعَدة الفلسطينيّين في غزّة، يَلقَوْن أنفسهم يشاركون كأطبّاء في صيانة نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ، الذي يتزايد تسليحه على نحوٍ متسارع. فقد أشار

العديد من المشاركين إلى الحضور المتزايد للرموز والقِيَم العسكريّة داخل مؤسَّسات الرعاية الصحّيّة، ممّا يعزّز الصلة بين الرعاية الصحّيّة وعسكرة الدولة. يخلق الشعور بالصراع الذي يعيشه الأطبّاء الفلسطينيّون -لكونهم معالِجين لا يمتلكون القدرة على مساعدة أبناء شعبهم الذين يحتاجون إلى مساعدتهم- مأزقًا أخلاقيًّا عميقًا بالنسبة لهم، ممّا يزيد من شعورهم بنزع إنسانيّتهم.

على الرغم من اندماج الأطبّاء الفلسطينيّين في النظام الصحّيّ الإسرائيليّ، ليس لهم في إسرائيل تأثير يُذْكَر؛ إذ تجري إدارة وجودهم بعناية لضمان ألّا يتمكّنوا من تشكيل أيّ تهديد سياسيّ للدولة. وتعكس هذه البنْية سياسات الدولة الأوسع في ما يخصّ الاحتواء ليسمح للفلسطينيّين في إسرائيل بالاندماج اقتصاديًّا، مع إبقائهم مهمَّشين سياسيًّا داخل الدولة. من شأن الإسهامات التي يقدّمها الأطبّاء الفلسطينيّون أن تحظى بالتقدير، ولكن أصواتهم تتعرّض للإسكات، وخاصّة عندما تتطرّق هذه إلى قضايا مجتمعهم. تُعَزِّز هذه الديناميكيّة أَجِنْدة الهَيْمَنة الاستعماريّة الاستيطانيّة الأوسع، والتي من خلالها يجري التحكُّم عن كثب بمشاركة الفلسطينيّين وربطها بخضوعهم السياسيّ.

على وجه الإجمال، تُبرِز نتائج هذه الدراسة التأثير العميق الذي خلّفته عمليّات نزع الإنسانيّة والمحو والعسكرة على مقدِّمي الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّين في إسرائيل في أعقاب السابع من أكتوبر. فعلى الرغم من وجود الأطبّاء الفلسطينيّين البارز داخل نظام الرعاية الصحّيّة، هم يتعرّضون على نحوٍ منهجيّ للإسكات وللتجريد من ذاتيّتهم السياسيّة. كذلك تُقيَّد قدرتهم على التعبير عن التعاطف والتصرُّف وَفقًا لأخلاقيّاتهم المهنيّة بشدّة بسبب التهديد بالتجريم، وهو ما يجعلهم يشعرون بالعجز وبالتواطؤ داخل نظام يعمل على نحوٍ فعّال على نزع الإنسانيّة عن أشقّائهم الفلسطينيّين. تعكس هذه العمليّةُ المزدوجةُ، المتمثّلةُ في نزع الإنسانيّة عن ضحايا العدوان العسكري الإسرائيليّ في غزّة وعن الأطبّاء الفلسطينيّين أنفسهم، الديناميكيّاتِ الأوسعَ لدى الاستعمار الاستيطانيّ، والهَيْمَنةَ التي تَسْبك نظام الرعاية الصحّيّة الإسرائيليّ. وإذا لم يحصل مقدِّمو الرعاية الصحّيّة الفلسطينيّون على تمثيل مستقلّ وفاعليّة سياسيّة، فلن تستمرّ المنظومة في الإخفاق في حماية حقوقهم فحسب، بل كذلك في إدامة تهميشهم.

ملـحَـق

أطبّاء ومستشفيات تحت القصف:
الإبادة الممنهَجة لجهاز الصحّة العامّة في غزّة خلال الحرب (2023- 2024)

في إطار الغضب المتفجّر الذي صاحَبَ السلوك الإسرائيليّ عقب قيام الفصائل الفلسطينيّة بعمليّة السابع من أكتوبر، استهدف الجيش الإسرائيليّ الجهاز الصحّيّ في غزّة على نحوٍ منهجيّ ومتعمَّد؛ بحجّة أنّها تحوّلت إلى مراكز قيادة وسيطرة تابعة لحركة حماس، وهو ما خلق واقعًا صحّيًّا بالغ الصعوبة والتعقيد. في هذا التقرير سوف نسلّط الضوء على الاعتداءات الإسرائيليّة على الجهاز الصحّيّ، والطواقم الطبّيّة والنازحين داخل المستشفيات في قِطاع غزّة.

في حين تميّزت الهجمات الإسرائيليّة على القِطاع الصحّيّ في الضفّة الغربيّة بالاعتداء على سيّارات الإسعاف والطواقم واقتحام المستشفيات والعيادات، بالإضافة إلى عرقلة وصول سيّارات الإسعاف إلى المواقع الحرجة،[68] كانت الإجراءات الإسرائيليّة تجاه الجهاز الصحّيّ في غزّة مختلفة تمامًا. فخلال أربع حروب متتالية على قِطاع غزّة (2008؛ 2012؛ 2014؛ 2023)، كانت الهجمات على القِطاع الصحّيّ خلال تلك الحروب تتميّز بقصف العيادات والمستشفيات والمختبَرات بصورة منتظِمة.[69]

منذ بداية الحرب، فكّكت القوّات الإسرائيليّة على نحوٍ منهجيّ ومدروس البنْيةَ التحتيّة للرعاية الصحّيّة في قِطاع غزّة، عبْر قصف المستشفيات والمراكز الصحّيّة، وقطع الكهرباء والإمدادات عنها، وإجبار المرضى والموظَّفين على إخلائها تحت تهديد السلاح، وإطلاق النار على العاملين في المستشفيات والباحثين عن مأوى، أو مَن يتلقَّوْن الرعاية فيها.[70] لقد قام الاحتلال الإسرائيليّ بتدمير المؤسَّسات الصحّيّة الكبرى مثل، مجمع الشفاء الطبّيّ في مدينة غزّة. وفي الجنوب، أفضى الأمر إلى إخراج المستشفيات الآتي ذكْرها عن الخدمة: أبو يوسف النجّار، والهلال الأحمر الإماراتيّ، والكويتيّ، ودار السلام، في حين يعمل المستشفى الأوروبيّ جزئيًّا، وما زال مستشفى "ناصر" تحت التهديد. أمّا مستشفى "شهداء الأقصى" فيعمل بنحو 10% من طاقته. كذلك قام الاحتلال بتدمير "مستشفى الصداقة التركيّ الفلسطينيّ للأورام"، ممّا أدّى إلى تفاقم معاناة مرضى السرطان، وكذلك أخرج ثلاثة مستشفيات للأطفال من الخدمة بعد تدميرها وهي: "النصر؛ "عبد العزيز الرنتيسي"؛ "محمّد الدرّة".[71]

وثّقَتْ منظّمة الصحّة العالميَّة مئة واثنتين من حالات الهجوم على مراكز الرعاية الأوّليّة، بينما تلقَّت ثلاث عشرة مؤسَّسة صحّيّة أوامر بالإخلاء من غزّة وشمال غزّة.[72] وحسب تقارير المكتب الإعلاميّ الحكوميّ في غزّة، فإن ثلاثةً وثلاثين مستشفى، وأربعةً وستّين مركزًا صحّيًّا، خرجت عن العمل بسبب الحرب على قِطاع غزّة، وأكّدت البيانات أنّ مئةً وستّين مؤسّسة صحّيّة قد استهدفها الاحتلال.[73] إضافة إلى هذا، وثّقت منظّمة "هيومن رايتس ووتش" الاعتداءات

---

* أتقدم بالشكر للباحث السياسي الدكتور منصور أبو كريّم على مساهمته في كتابة الملحق.

68. طنّوس، أسامة. (2024). الاعتداءات الإسرائيليّة على القِطاع الصحّيّ: المعيار الجديد أيضًا في الضفّة الغربيّة. مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

69. Asi, Yara M, et al. (2021). Are There 'Two Sides' to Attacks on Healthcare? Evidence from Palestine. **European Journal of Public Health**, 31 (5). Pp. 927– 928.

70. حنبلي، ليث. (2024). تدمير القِطاع الصحّيّ في قِطاع غزّة. مؤسّسة الدراسات الفلسطينيّة.

71. الجزيرة نت. (2024، 2 تشرين الأول). كيف أثّرت الحرب على الحالة الصحّيّة لسكّان قِطاع غزّة؟. الجزيرة نت.

72. United Nations Development Programme (UNDP). (2024). **The Gaza War: Anticipated Economic and Social Implications for the State of Palestine**. Jerusalem: United Nations Development Programme (UNDP). P. 5.

73. الريان. (2024، 15 تموز). 283 يومًا للحرب على غزّة. الريان.

على المنشآت الصحّيّة في غزّة حيث "قصفت القوّات الإسرائيليّة المستشفى الإندونيسيّ مرّات عدّة بين 7 و28 تشرين الأوّل، فقتلت مدنيَّيْن على الأقلّ." وتعرّض المركز الدوليّ للعيون لقصف متكرّر ودُمِّر بكامله بعد غارة في 10 تشرين الأوّل 2023، كما ألحقت الغارات الإسرائيليّة المتكرّرة أضرارًا بمستشفى القدس التابع لجمعيّة الهلال الأحمر الفلسطينيّ، وأصابت رجلًا وطفلًا أمامه. كذلك قصفت القوّات الإسرائيليّة في عدّة مناسبات سيّارات إسعاف تحمل علامات واضحة. في حادثة واحدة، جرت في 3 تشرين الثاني 2023، قتلت وجرحت ما لا يقلّ عن اثنَيْ عشر شخصًا، بينهم أطفال، أمام مستشفى الشفاء.[74]

من الواضح أنّ ثمّة نمطًا متكرّرًا ومتّسقًا من الهجمات على المستشفيات في مختلف أنحاء قِطاع غزّة يتّسم بالترهيب والهجمات على المناطق المحيطة والاستهداف المباشر والحصار. وقد أدّى تأثير هذا النمط الممنهَج والواسع النطاق، من تدمير للبنْية التحتيّة الطبّيّة ومن نقل قسريّ للسكّان، إلى خروج أغلب المستشفيات والمراكز الصحّيّة العاملة في غزّة عن الخدمة، بما في ذلك جميع المستشفيات الواقعة في شمال القِطاع.[75] الاعتداءات على المستشفيات حدثت بطرق شتّى، من بينها قصف محيط هذه المستشفيات، واجتياحها، وقنصها، وحصارها، وتحويل ساحاتها الخلفيّة إلى مقابر جماعيّة.[76]

علاوة على هذا، لم تتوقّف الاعتداءات الإسرائيليّة على المستشفيات والمراكز الصحّيّة، بل لقد بلغت حدّ الاعتداء على الطواقم البشريّة العاملة في هذا المجال. فمنذ السابع من أكتوبر، قُتِل 1,057 من أفراد القِطاع الصحّيّ في غزّة، كان آخِرهم الطبيب سعيد جودة عقب تعرُّضه لإطلاق نار إسرائيليّ مباشر ببلدة بيت لاهيا شمال القِطاع،[77] كما اعتقلت وقتلت قوّات الاحتلال العديد من الكوادر الطبّيّة من مستشفيات غزّة، كان من بينهم الدكتور عدنان البرش رئيس قسم العظام في مستشفى الشفاء بغزّة. وكان البرش قد اعتُقِل في كانون الأوّل 2023، خلال وجوده في مستشفى العودة شمال غزّة إلى جانب مجموعة أطبّاء.[78] قدّم "روهان تالبوت"، مدير المناصرة والحملات في المنظّمة الخيريّة البريطانيّة (المعونة الطبّيّة للفلسطينيّين)، شهادةً أمام البرلمان البريطانيّ بشأن جرائم الاحتلال الإسرائيليّ ضدّ الأطبّاء في غزّة. في شهادته، أكّد أنّ ثمّة أدلّة تشير إلى الاستهداف المتعمَّد من قِبل إسرائيل للكوادر الطبّيّة الفلسطينيّة.[79]

أضف إلى ذلك أنّ الاعتداءات الإسرائيليّة طالت النازحين داخل أسوار المستشفيات؛ ففي 17 تشرين الأوّل 2023، افتتحت إسرائيل مسلسل استهدافها للمشافي الفلسطينيّة، وذلك عبْر استهداف الساحة الداخليّة للمستشفى الأهليّ المعمدانيّ، لتحصد أرواح قرابة 500 فلسطينيّ غالبيّتهم من النساء والأطفال ممّن لجأوا إلى المستشفى.[80] ادّعى مسؤولون إسرائيليّون أنّ الإخفاق في إطلاق صاروخ محلّيّ كان مسؤولًا عن الانفجار، وعلى وجه التحديد أشار المسؤولون الإسرائيليّون إلى وابل من سبعة عشر صاروخًا أُطلِقت من داخل غزّة باتّجاه المستشفى، زاعمين أنّ أحد هذه الصواريخ أخطأ الهدف وكان مسؤولًا عن الانفجار في مستشفى الأهليّ والدمار الناتج عنه، لكن السلطات الفلسطينيّة والتقارير الواردة من الميدان ألقت اللوم على غارة جوّيّة إسرائيليّة. في تقريرٍ لاحِقٍ لجمعيّة الهندسة المعماريّة المحقَّقة، توافرت أدلّة تنفي الادّعاءات الإسرائيليّة.[81]

74. هيومن رايتس ووتش. (2023، 24 تشرين الثاني). غزّة: القصف الإسرائيليّ غير القانونيّ للمستشفيات يفاقم الأزمة الصحّيّة. هيومن رايتس ووتش.

75. Forensic-Architicture. (2024). Destruction of the Medical Infrastructure in Gaza. Forensic-Architicture.

76. طنّوس، أسامة. مرجع رقم 68.

77. وكالة الأناضول. (2024، 12 كانون الأول). صحّة غزّة: ارتفاع حصيلة شهداء القِطاع الصحّيّ إلى 1,057. وكالة الأناضول.

78. وكالة الأناضول. (2024، 5 أيار). عدنان البرش أشهَر جرّاحي غزّة.. اعتقال وتعذيب واستشهاد بسجون إسرائيل (بروفايل). وكالة الأناضول.

79. التلفزيون العربي. (2024، 17 تشرين الثاني). اغتصاب حتّى الموت.. هكذا عاملت إسرائيل طبيبًا فلسطينيًّا أسَرَتْه من غزّة. التلفزيون العربي.

80. الجزيرة نت. (2023، 23 أيار). حرب على المستشفيات. إستراتيجيّة اعتمدتها قوّات الاحتلال في عدوانها على القِطاع. الجزيرة نت.

81. Forensic Architecture. (2024, February 15). Israeli Disinformation: Al-Ahli Hospital. Forensic Architecture.

وكذلك قُتل اثنان وأصيب ستّة وعشرون آخرون بقصف إسرائيليّ استهدف خيامًا لصحافيّين ونازحين داخل أسوار مستشفى شهداء الأقصى، وذلك للمرّة التاسعة منذ بدء العدوان.[82] تَحْدث هذه الاعتداءات على المستشفيات والمراكز الصحيّة في قِطاع غزّة، رغم أنّها محصَّنة من الاستهداف بموجب القانون الدوليّ، فالمستشفيات والمَرافق الطبّيّة الأخرى هي أعيان مدنيّة تتمتّع بحماية خاصّة بموجب القانون الإنسانيّ الدوليّ، أو قوانين الحرب.[83]

آثار الحرب على غزّة تظهر على نحوٍ جليٍّ في قِطاع الصحّة؛ إذ إنّ هذا القِطاع يعاني انتكاسات مدمّرة لها آثار طويلة الأمد على الوقاية من الأمراض، والتماسك الاجتماعيّ. تشير التقديرات إلى أنّ 16,854 طفلًا لم يتمكّنوا من الحصول على التطعيمات الروتينيّة، وهو ما أدّى إلى انتشار عدد من الأمراض الوبائيّة مثل الكبد الوبائيّ، ممّا يؤكّد على مستقبل الصحّة المقلق في قِطاع غزّة، والحاجة الملحّة إلى التدخُّل في الأزمة الصحّيّة.[84] فقد أدّى النقصُ الحادّ في المياه وتلوُّثها، والنقصُ الحادّ في الطواقم البشريّة نتيجة الاغتيالات والاعتقالات، والنقصُ الحادّ في الأدوية والمستلزمات الطبّيّة والدم ومشتقّاته، وعدمُ القدرة على الوصول إلى الخدمات والصحّيّة، إلى حصول تدهور كبير في الخدمات الطبّيّة المقدَّمة للمواطنين في غزّة.[85]

خاتمة

يمرّ الجهاز الصحّيّ في غزّة في فترات عصيبة نتيجة تداعيات الحرب؛ فمنذ اليوم الأوّل للحرب على غزّة كان القِطاع الصحّيّ هدفًا مباشرًا للاستهداف الإسرائيليّ، سواء أكان ذاك في المستشفيات أَمْ في مراكز الرعاية الصحّيّة، فغالبيّتها توقّفت تمامًا عن العمل أو هي تعمل على نحوٍ جزئيّ نتيجة التدمير الممنهَج، وهو ما أسفر عن عجز في تلبية احتياجات ما يقارب مئة ألف من الجرحى جرّاء الحرب، إلى جانب المرضى وعموم السكّان. وقد أسهم هذا في انتشار العديد من الأمراض والأوبئة، مثل فيروس شلل الأطفال والجدريّ والكبد الوبائيّ وغيرها من الأمراض والأوبئة، ممّا ينْذر بمزيد من التداعيات الصحّيّة إن استمرّت الاعتداءات على الجهاز الصحّيّ والنقص في الموارد البشريّة والأدوية والمستلزَمات الطبيّة.

82. التلفزيون العربي. (2024، 9 تشرين الثاني). للمرّة التاسعة.. الاحتلال يستهدف خيام النازحين في مستشفى شهداء الأقصى. التلفزيون العربي.

83. هيومن رايتس ووتش. (2023، 24 تشرين الثاني). غزّة: القصف الإسرائيليّ غير القانونيّ للمستشفيات يفاقم الأزمة الصحّيّة. هيومن رايتس ووتش.

84. الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني. (2024، 6 تشرين الأول). الإحصاء الفلسطينيّ يستعرض الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والبيئيّة بعد مرور عام كامل على عدوان الاحتلال الإسرائيليّ على قِطاع غزّة والضفّة الغربيّة. الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

85. الحسيني، عبد اللطيف. (2024، 7 شباط). على حافة الهاوية: الحرب والصحّة العامّة في غزّة. جامعة بير زيت.

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية